النبوية، فكل ما صدر عنه ﷺ يقع في دوائر التيسير، والرحمة، والعدل، ورفع الآصار والأغلال، ويهدف إلى حفظ مصالح الخلق المتعلقة بحياتهم الفردية، والجماعية، والإنسانية.. وحياتهم المعاشية، والروحية.. فمنهجية الرسول عليه الصلاة والسلام المضمنة في أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وأخلاقه، وشمائله، مصبوغة بالمنطق المقاصدي الهادف.

فكل جهده يجب أن يدرس في إطار مقاصد الشارع.. فاعتماده على منهج التربية، والتكوين، والتدريب على الاجتهاد، والتشاور، والتفكير، والتبين، والسير في الأرض، والجهاد، إنما كانت غايته الأساسية توفير الجو والوسط، الذي تنمو فيه «العقلية المقاصدية» المتدبرة لخطاب الله، والتي تسبر أعماق البلاغ الرباني المبين، وتحمل رسالة القول الثقيل.. حيث كان عليه الصلاة والسلام (مرجعية مقاصدية) توجه الناس إلى الأسرار، والمقاصد التي حملها التكليف الرباني للخلق.

فعندما نقوم بدراسة سنن نبينا عليه الصلاة والسلام، وأحاديثه التي حوت أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وسائر أعماله، علينا أن نلاحظ المسحة المقاصدية، التي لم تكن علمًا صناعيًا ينكب فيه عليه الصلاة والسلام مع صحابته الكرام على طاولات البحث، والدرس، والتحصيل المدرسي، بل كانت سلوكًا وروحًا، تسري في عروق الناس، وتغذي جنين الحضارة برسالة الإنسان في الأرض، وتريه حقيقة وجود الكتاب، والكون، والناس، وتبين له أن كل شيء وجد ليحقق مصالح الناس في الدارين..

## ثانيا : البعد البلاغي للمنهج النبوي

يقول المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (المائدة: ٦٧)

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (المائدة: ٩٢).

## المنهج النبوي كإطار تطبيقي للبلاغ المبين

هكذا خطت الفكرة القرآنية طريقها نحو مشروعها الاستخلافي، وهكذا تقرر المنهج ليكون بلاغيًا ودعويًا في أصوله الأولى. فالبلاغ المبين هو طريق البناء الحضاري التوحيدي، والدعوة البلاغية هي سبيل التحرك الإسلامي المبين في التاريخ.

فالمبلغ الذي يحمل همّ الدعوة الحضارية العالمية، التي تنبثق في أصولها، ومنهجها عن مصادر التوحيد الإسلامي، مطالب بالفقه العميق لمنهاج الهداية الحضارية، ومنهج الإصلاح الإنساني، ومنهجية التغيير الثقافي. وهنا تظهر أهمية سنة الرسول ﷺ في تقديم الوعي المستوعب، على هذه القضايا المتعلقة أصلاً بالمنطق العملي للبلاغ المبين، وصياغته التطبيقية، كيما يتحول إلى قوة تنفيذية للنظرية الحضارية الإسلامية، ومحاولة تحويلها إلى مواقف سلوكية يومية تدخل في توجيه حياة الناس العامة والخاصة، الأخلاقية والمادية، العقلية والنفسية، الفكرية والاجتماعية، الأدبية والعمرانية.

فالمنهج النبوي لا يقدم فقط الإطار المرجعي للسلوك البلاغي الدعوي، والمنهاج التوجيهي للفعل الإصلاحي، والترشيدي، بل يقدم بالإضافة إلى ذلك البناء العملي لهذه الأفكار النظرية. فالسنة أصلا موقف عملي منهجي منظم،

دخل في اطراد بناء المجتمع الإسلامي الأول، وترك للأجيال الإسلامية معيار البناء الحضاري الخاضع لتعاليم الوحي، والمنضبط بتوجيهاته. فالباحث في السنة باحث أيضاً في الأصول التطبيقية للحضارة الإسلامية، وفي المناهج السلوكية، التي حولت الفكر النظري إلى سياسة عملية.

ومن هذا التأسيس نكون أمام مطلب جوهري في التعامل مع السنة النبوية، وهو إلزامية كشف، وفهم البعد البلاغي والدعوي للخطاب الإسلامي، الذي أودعت فيه جهود النبي عليه الصلاة والسلام، روح المنهج البلاغي الإسلامي، وبينت قواعده، وخصائصه، ومضامينه، ومناهجه.

فالرسول ﷺ كان مبلغًا، ومعلمًا، ومصلحًا، وداعيًا، وشاهدًا، ومبشرًا، ومنذرًا، وهاديًا، يعتمد في خطابه على (الحكمة والموعظة الحسنة)، تمامًا كما دلت النصوص القرآنية والحديثية في مثل قوله تعالى:

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥).

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

لقد كان يخاطب النفوس، والعقول بما تطيقه، خبيرًا بالواقع، عالمًا بأحوال المخاطبين، مدركًا لثقافتهم وتاريخهم، عارفًا بمداخل استجابتهم، مستوعبًا لمناهج مجادلتهم، واعيًا على قدراتهم، وإمكاناتهم، واستعداداتهم، وآمالهم، وآلامهم.

# معادلة البلاغ المبين

لكي ندرك بوعي، نظرية البلاغ المبين، كما تتصورها المذهبية التوحيدية، نحتاج إلى التعرف على أمرين اثنين هما :

١ - مفهوم البلاغ المبين وشروطه.

٢ - محاور البلاغ المبين.

## ١- مفهوم البلاغ المبين وشروطه

فهم نظرية البلاغ المبين،كما يطرحها النموذج الحضاري الإسلامي، يستدعي عرضها على ميزان خطاب الله سبحانه وتعالى. ففلسفة هذا البلاغ ومناهجه، ووسائله، وغاياته، ومقاصده، تتحدد بالفلسفة القرآنية المتعلقة بقضايا الحياة، والكون، والإنسان، وصيرورة الوجود الدنيوي عمومًا. وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول: بأن وظيفة البلاغ المبين، هي: تمكين الأمة من إنجاز رسالة الشهادة على الخلق، وتحقيق مسؤولية الأمة الوسط، وإقامة الحجة الدامغة على الناس، وتبيين أنه الحق تبارك وتعالى، وتحقيق تبعات هذه المسؤولية على صعيد :

- العبادة الحقة لله سبحانه وتعالى.
- الإعمار الكوني.
- التسخير السُنني.
- الإنقاذ الحضاري للبشر.
- التعارف الثقافي بين الأمم والشعوب..

وعليه، فالبلاغ المبين هو جميع الجهود الإسلامية المخلصة لله سبحانه

وتعالى، والمتوافقة مع الهدي النبوي، والهادفة إلى توفير موجبات الاستخلاف الحق في الأرض، وتحصيل مقاصد الشارع في الخلق، عن طريق العرض المنهجي للإسلام في شموليته، وتكامله كنظام حياتي، مستوعب لسعادتي الدنيا والآخرة، وتثقيف الناس على مذهبيته ورسالته ومشروعه، والسعي إلى بنائه، الواقعي بالوسائل المشروعة والمتماشية مع ظروف الواقع الإنساني المتغير في الزمان والمكان.

ومن هنا، ولكي نحقق بلاغًا مبينًا وهاديًا في مستوى التحدي العالمي الذي تستدعيه مسيرة البشرية، وتطوراتها العقلية والثقافية، والمنهجية، والحضارية، علينا أن نحقق بعض الشروط الأساسية، والتي منها :

- الفهم العميق لخطاب الله سبحانه وتعالى، في مذهبيته التوحيدية، ورسالته الاستخلافية، ومشروعه الاجتماعي. وتعد هذه الغاية مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسميها: ( مرحلة فهم الخطاب الإلهي ).
- الفهم العميق لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وفلسفته في البلاغ المبين، ومنهاجه في الهداية، ومنهجيته في تطبيق الإسلام، وبنائه واقعيًا، وتعتبر كذلك هذه الغاية، مرحلة من مراحل البلاغ المبين نسميها: ( مرحلة فهم النموذج التطبيقي للإسلام ).
- الفهم المستوعب للسنن الإلهية التكوينية، والتاريخية، التي تتحكم في البلاغ المبين، وفي بناء الدعوات الحضارية، وتعتبر هذه الغاية كذلك من مراحل البلاغ المبين ونسميها: ( مرحلة السير في الأرض، والوعي السنني ).
- الفهم العميق لطبائع المراحل الحضارية التي مرت، وتمر بها البشرية، بغرض فهم صيرورتها فوق الكوكب الأرضي، ونسمي هذه المرحلة من مراحل البلاغ المبين: ( مرحلة فقه العمر الحضاري للإنسانية ).
- الفهم المستوعب للواقع المحلي، والعالمي، في تركيبه، وبنائه، وتاريخه،

ونسمي هذه المرحلة البلاغية: ( بمرحلة فهم الواقع القائم، والخبرة التاريخية، والمستقبل المنشود للبشرية ).

- الفهم العميق لمنهاج بناء البلاغ المبين في الواقع الحياتي للناس، وتعد هذه المرحلة البلاغية مرحلة تطبيقية تنتج عن الوعي المتحصل من فهم المراحل السابقة، ومحاولة استخدامها في مشروع اجتماعي عملي، ونسميها ( مرحلة البناء الحضاري ) (١).

## ٢ - محاور نظرية البلاغ المبين

فإذا أدركنا بأن مفهوم البلاغ المبين مستوعب لرسالة حضارية جماعية، واستشعرنا صعوبة تحقيق شروطها، وضخامة المهمة الملقاة على عواتقنا كأبناء أمة إسلامية رسالية ، وجب علينا أن نفهم المحاور النظرية ، والتطبيقية لنظرية البلاغ المبين(٢).

فلكي نؤدي وظيفية البلاغ المبين، علينا أن نعي فلسفة هذا البلاغ، ومناهجه، وعلاقته بالعلوم النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والعلوم الشرعية من جهة، والعلوم السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والوسائلية، والإعلامية، والجغرافية، والتكنولوجية، والصناعية، والعلوم الطبيعية، والكونية ( الآفاقية ) من جهة ثانية.

إن الصلة وثيقة جداً بين هذه العلوم، ونظرية البلاغ الإسلامي المبين، على اعتبار أنه - البلاغ - الغاية القصوى لكل هذه العلوم. فكل علم إسلامي نقلي أو عقلي، مطالب شرعًا بأن يقصد في غايته، المساهمة في البلاغ المبين ؛ إذ هذه العلوم تبقى فاعلة، وعملية، إذا نزلت إلى ساحات البلاغ التي تقدم فيها الهداية

(١) راجع كتابنا: التغيير الحضاري والسنن الإلهية «تحت الطبع». وستجد فيه كل التفاصيل المتعلقة بهذه المراحل وأهميتها.

(٢) راجع : الخطاب الإسلامي وموقف المسلمين منه، للشيخ الطيب برغوث.

الإسلامية للبشرية في كل المجالات الحياتية، ونحن في هذه الدراسة الأولية سوف لا نتتبع هذه الصلات الموجودة بين البلاغ المبين، والعلوم المختلفة، لأسباب منهجية، وموضوعية خاصة بوحدة الموضوع، ولكننا سنقتصر على ذكر ملاحظات عن المحور الفلسفي، والتاريخي، والواقعي «المنهجي» للبلاغ المبين كما عرضته سيرة الرسول ﷺ مرجئين المحور السياسي، والاقتصادي، والثقافي، والتربوي، والمعرفي إلى حينه إن شاء الله.

## أ - المحـور الفلسفي للبـلاغ المبين

وأعنى به فلسفة هذا البلاغ، ومضامينه التصورية الكبرى، وعلاقاته المنهجية الأساسية. فالمبلِّغ الإسلامي عن الله سبحانه وتعالى، مُطالب بأن يفهم بأن الإصلاح، والترشيد، والهداية، والدعوة، والتعليم، كما تطرحه نظرية الإسلام الحضارية، تقتضي الوعي على مراتب، ومستويات، ومضامين العلاقات الدعوية، القائمةفي نظرية البلاغ المبين. فلكي يكون هناك بلاغ مبين، كما تطرحه الفلسفة التغييرية القرآنية، علينا أن ندرك بعمق العلاقات المترتبة عن العناصر التالية :

- علاقة الإنسان المستخلَف بالخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان، والكون، والحياة.. ولهذه العلاقة مراتب يجب وعيها هي : مرتبة التكليف، ومرتبة التوحيد، ومرتبة العبودية، ومرتبة المقاصد، ومرتبة الاستخلاف..
- علاقة الإنسان بأخيه الإنسان في مراتبها التالية : مرتبة الاجتماع، ومرتبة الأمة، ومرتبة الرسالة، ومرتبة الثقافة، ومرتبة الحضارة، ومرتبة التاريخ..
- علاقة الإنسان بالكون في مراتبها التالية : مرتبة التسخير، ومرتبة الإعمار، ومرتبة كشف الآيات، ومرتبة استخدام السنن، ومرتبة المؤاخاة بين الإنسان والكون..

- علاقة الإنسان بالحياة في مراتبها التالية : مرتبة فهم الزمن، ومرتبة فهم المتاع، والعرض الدنيوي، ومرتبة فهم لحظات العبور، أو كما أثر عن الإمام علي كرم الله وجهه: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً).

فمن هذه العلاقات الأساسية، تنبني نظرية البلاغ الإسلامي، وتتوحد العلوم لأداء رسالة تبيين أنه الحق تبارك وتعالى. فلكي نقدم بلاغاً إسلامياً تبشيرياً، وتعليمياً هادياً، علينا أن نفهم بعمق هذه العلاقات المتناغمة بين عناصر نظرية البلاغ الإسلامي المبين : الخالق تبارك وتعالى، والإنسان، والكون، والحياة..

## ب - المحور التاريخي للبلاغ المبين

نعني بالمحور التاريخي للبلاغ المبين: مراعاة تاريخ الأمم، والشعوب، ومعرفة ثقافتهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وذلك عندما نبدأ في ممارسة العمل الدعوي، حتى نخاطب الناس من خلال المداخل الطبيعية لاستجاباتهم. والرسول ﷺ كان خبيراً بتاريخ المجتمعات التي كان يمارس عليها الدعوة، والبلاغ المبين، ومن أمثلة هذا الوعي قوله عليه الصلاة والسلام لأصحابه الذين اضطهدوا، آمراً لهم بالهجرة إلى الحبشة : (**إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض الصدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**) (١). فهذا الوعي التاريخي بشخصية هذا الملك، وعدله، وبالأرض وخاصيتها، إنما يعبر عن إدراك النبي ﷺ لأهمية المحور التاريخي في البلاغ المبين. والوعي التاريخي متحصل من السير في الأرض، والنظر في سنن الأولين، وفي آيات الله في الآفاق والأنفس..

يقول الأستاذ جودت سعيد : (ثم إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس، ليحل المشكلة خارج النصوص. ولا مانع من التذكير بالحديث الذي أكرره كثيراً لما له من الدلالة، والأهمية في هذا الموضوع، موضوع آيات الآفاق، والأنفس..ذلك الحديث الذي يترك فيه الرسول ﷺ الاحتجاج

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، القسم الأول، ج ١ - ٢، ط : ٢، السنة : ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م، ص : ٢٩٦.

بسلطانه النبوي، وسلطان ما أوحي إليه، ليتخذ من آيات الآفاق والأنفس دليلاً، وحجة لبيان موضوع معين، وقع الجدال فيه مع صاحبه زياد بن لبيد : « ذكر ابن كثير في تفسير سورة المائدة الآية ٦٣، وصححه عن الإمام أحمد قال: ذكر النبي ﷺ شيئًا فقال: « **وذاك عند ذهاب العلم**»، قلنا يا رسول الله: كيف يذهب العلم ؟ ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا.. وأبناؤنا يقرئون أبناءهم؟! فقال : «**ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة. أليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة، والإنجيل، ولا ينتفعون مما فيهما بشيء؟!**» .. هنا يلجأ الرسول ﷺ إلى آيات الآفاق والأنفس ليحسم النزاع، والجدال في آيات الكتاب، وإن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم، في ظروف معينة، والرسول ﷺ هنا يستشهد بحدث تاريخي واقع أمام العالم جميعًا، لا يمكن أن ينكره أحد. وهذه القوة لآيات الآفاق والأنفس، أشرنا إليها قريبًا حين قلنا: إن دلالتها عالمية، وفوق الأيديولوجيات، ولم يحاول هنا رسول الله ﷺ أن يقول: أنا رسول الله، ولا أنطق عن الهوى، وعليك أن تسلم بما أقول، ولا تجادل فيه. إن هذه الحادثة، والحوار العجيب الذي دار في مطلع الحياة الإسلامية، لعميق الدلالة، وسوف لا يكف عن عطاء ما يحتويه من منهج لا يزال يتألق على مر العصور في أهمية الوقائع في الآفاق والأنفس. وهذا ما أردنا أن نضعه أمام الشباب المسلم ليتأملوا فيه، ليس كحدث جزئي، وإنما كمنهج )[1]*.

---

(١) اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ط : ١، السنة : ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، دار الفكر، دمشق، ص : ٢٢٢ - ٢٢٣

* قول الأستاذ جودت سعيد غفر الله له : « إن الرسول ﷺ نفسه يستخدم آيات الآفاق والأنفس ، ليحل المشكلة خارج النصوص » ، نخشى أن يكون فيه شيء من الالتباس والمغالطة والمجازفة أيضاً ، لأن استخدام آيات الآفاق والأنفس ، وأهمية النظر فيها ، والاستدلال بها ، لايخرج عن عطاء النصوص ، بل النصوص هي التي أرشدت إليه ، ودعت إلى اعتماده ، والاستدلال به ، وتسخيره .

والأعجب من ذلك قول الأستاذ جودت أيضاً : « إن آيات الكتاب قد تكف عن أدائها دور العلم في ظروف معينة » ! أوليس استخدام آيات الأنفس والآفاق ، هو دليل فاعلية آيات الكتاب ، وعدم عطالتها عن أداء دور العلم ؟! - الناشر - .

إننا حقًا لا نستطيع إدراك جهود الرسول ﷺ إلا إذا نظرنا إليها كمناهج متكاملة، وتأملناها كوسائل فاعلة في بناء الحياة الإسلامية.

## ج - المحور الواقعي للبلاغ المبين

إن الطبيعة البلاغية، والدعوية للرسالة الإسلامية هي التي استدعت الوعي على أحوال الخلق، وطبائعهم، واستعداداتهم، وميولهم، وقدراتهم وذلك بغرض مخاطبتهم بما يطيقون من غير إكراه، ولا تعسف. ومعنى المحور الواقعي للبلاغ المبين هو إدراك معادلات الناس الفردية، والاجتماعية، ومخاطبتهم حسب ظروفهم، ومشاغلهم، واكتساب مفاتيح التعامل مع أوضاعهم كما هي في الواقع المعيش (١). والنبي عليه الصلاة والسلام، خبير بهذا الجانب من جوانب البلاغ المبين، عارف لأسراره، وخباياه، ومناهجه، ووسائله، وليس أدل على هذا، تتبع منهج النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الأفراد والجماعات.

يقول الإمام الشاطبي مقعّدًا لقانون دعوي منهجي، مستخلص من الفقه النبوي :

(النظر فيما يصلح بكل مكلف في نفسه، بحسب وقت دون وقت، وحال دون حال، وشخص دون شخص، إذ النفوس ليست في قبول الأعمال على وزن واحد... فصاحب هذا التحقيق الخاص، رزق نورًا يعرف به النفوس، ومراميها، وتفاوت إدراكها، وقوة تحملها للتكاليف، وصبرها على حمل أعبائها، أو ضعفها، ويعرف التفاتها إلى الحظوظ العاجلة أو عدم التفاتها. فهو يحمل على كل نفس من أحكام النصوص، ما يليق بها، بناء على أن ذلك هو المقصود الشرعي في تلقي التكاليف)(٢).

---

(١) راجع : الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية ، للشيخ الطيب برغوث .

(٢) الموافقات ، ج ٤ ، ص ٤٨ ، بتصرف خفيف .

فهذه قاعدة من قواعد التعاطي مع المنهج البلاغي النبوي، الثاوي في سنته ﷺ وهذه جملة من النماذج الواقعية لهذه المنهجية.

فمن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل في أوقات مختلفة عن أفضل الأعمال، وخير الأعمال، وعرف بذلك بعض أوقات من غير سؤال، فأجاب بأجوبة مختلفة، كل واحد منها، لو حمل على إطلاقه، أو عمومه، لاقتضى مع غيره التضاد والتفضيل.

ففي الصحيح أنه عليه الصلاة والسلام «سئل: أي الأعمال أفضل ؟ قال: **إيمان بالله**. قال: ثم ماذا ؟ قال: **جهاد في سبيل الله**. قال: ثم ماذا ؟ قال: **حج مبرور**»(١) .. «وسئل عليه الصلاة والسلام: أي الأعمال أفضل؟ قال: **الصلاة لوقتها** ، قال: ثم أي؟ قال: **بر الوالدين**. قال: ثم أي؟ قال: **جهاد في سبيل الله**»(٢) .

وفي النسائي عن أبي أمامة قال: أتيت النبي ﷺ فقلت مرني بأمر آخذه عنك. قال : «**عليك بصوم فإنه لا مثيل له**»(٣) .

وفي الصحيح في قول : «**لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له ... إلخ** . قال: **ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلاّ رجلٌ عمِل أكثر منه**»(٤) .

وفي الترمذي : «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»(٥) ..

وفي البزار : «أي الدعاء أفضل ؟ قال : **دعاء المرء لنفسه**»(٦) ..

وفي الترمذي : «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن**»(٧) .

---

(١) رواه الشيخان ، واللفظ لمسلم .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه النسائي ( صحيح النسائي للألباني ) .
(٤) متفق عليه .
(٥) رواه الترمذي ( صحيح الترمذي للألباني ) .
(٦) قال الهيثمي في المجمع : رواه البزار بإسنادين وأحدهما جيِّد .
(٧) رواه الترمذي ( صحيح الترمذي ) .

وفي البزار : «يا أباذر ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما»[١] ..

وفي مسلم : «أي المسلمين خير ؟ قال : «من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٢] .. وفيه : «أي الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»[٣] .. وفي الصحيح : «وما أُعطي أحد عطاءاً خيراً وأوسع من الصبر»[٤] .. وفي البخاري : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[٥].

ومن الضوابط الدعوية أن يخاطب النّاس بما يفهمون، فقد روي عن علي رضي الله عنه، قوله :

(حدثوا الناس بما يفهمون. أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله)[٦].

ويضيف الإمام الشاطبي ضابطاً آخر في عالم البلاغ المبين ، محاولاً تحديد منهجية للتعامل مع العقول ، والأذهان ، والوقائع ، والأزمان ، حسب ما تتطلبه منهجية الدعوة في المنهاج الإسلامي قائلاً : ( وضابطه أنك تعرض مسألتك على الشريعة، فإن صحت في ميزانها، فانظر في حال مآلها بالنسبة لحال الزمان وأهله، فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة، فاعرضها في ذهنك على العقول، فإن قبلتها فلك أن تتكلم فيها ، إما على العموم ، إن كانت مما تقبلها العقول على العموم، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم، وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ، فالسكوت عنها هو الجاري على وفق المصلحة الشرعية والعقلية )[٧].

---

(١) قال الهيثمي في المجمع : رواه أبو يعلى والطبراني في الأوسط ، ورجال أبي يعلى ثقات .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه البخاري ومسلم .
(٥) رواه البخاري .
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، موقوفًا على علي رضي الله عنه .
(٧) الموافقات ، ص ١٩١ .

والذي يتعمق في دراسة الجانب التطبيقي للإسلام، من خلال السيرة النبوية الشريفة، يرى كيف وفق رسول الله ﷺ، في مواجهة مشكلات المجتمع الجاهلي، وكيف كان يتعامل مع النفوس البشرية المتباينة : فكرًا، ومزاجًا، ومكانة. وكيف كان يتدرج بها من مرحلة إلى مرحلة، بصبر وأناة، وحكمة، حتى نقلها من الجاهلية إلى الإسلام.

لقد كان من أبرز خصائص، وسمات المنهج النبوي: «التغيير المتدرج حسب الأولويات» كما أفصحت عن ذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي تصف منهجية التغيير الإسلامي، التي كانت وراء نجاح الدعوة الإسلامية : «إنما نزل أول ما نزل منه – أي القرآن – سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو كان أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا لا ندع الزنا أبدًا» ( رواه البخاري ).

والمسلم اليوم عندما يتأمل عمل النبي ﷺ في التربية والحركة، يجد أن من بين أهم المفاتيح التي فتح بها مغاليق النفس البشرية، وغير بها أوضاع الحياة الاجتماعية : «قدرته الفائقة على فهم النفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية التي يخضع لها الناس، والتعامل معها على ضوء ذلك الفهم الشمولي العميق» الذي كان خير معين له على طرح الحلول

الجذرية، للمشكلات الإنسانية، النفسية، والاجتماعية، الفردية، والجماعية.

ولقد أعانه على امتلاك تلك القدرة في فهم النفوس البشرية، والأوضاع الاجتماعية، وإدراك المؤثرات النفسية، والبيئية أمران أساسيان هما :

- الوحي الأعلى.

- والاستعداد الذاتي.

فالوحي الأعلى كان يطلعه به الله سبحانه وتعالى سواء عن طريق جبريل عليه الصلاة والسلام مباشرة، أو عن طريق الإلهام في بعض الأحيان عندما تقصر وسائله الخاصة، في التحري، والتدقيق، ويبدو أن أمراً مهماً سيفوته، أو خطراً كبيراً سيلحقه، كما في تآمر بني النضير على قتله.. وكما في قصة حاطب بن أبي بلتعة.. وكما في قصة فضالة الذي جاء يريد قتله، وغيرها من الوقائع التي يعلم بها رسول الله ﷺ عن طريق الوحي، فيأخذ حذره منها، ويحتاط لها.

والاستعداد الذاتي : حيث كان عليه الصلاة والسلام يهتم بمعرفة كل صغيرة وكبيرة في المجتمع، الذي يكون فيه، ويكلف أصحابه بإبلاغه ما يصلهم من معلومات وأخبار عن أحوال الناس، وأوضاع المجتمع.

قال القاضي عياض فيما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما : « ... فيتشاغل بهم - أي الناس - ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة، ومن مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب،

وأبلغوني حاجة من لايستطيع إبلاغي حاجته... يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بشره وخلقه، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس».

«ويرسل رجاله المقتدرين إلى الجهات التي يريد معرفة حالها، فيأتونه بالأخبار التي يستعين بها على رسم خططه، وإنفاذ أمره» (١). ومواجهة أعباء ومسؤوليات الدعوة، والحدب عليها، حتى لا يلحقها الأذى.

فخبرته ﷺ بالنفوس والأوضاع البشرية، وحرصه على متابعة مجريات الأحداث، والإشراف عليها ولو من بعيد، ساعده كثيراً في ضمان قدر هائل من الفاعليه في حركته، لأنها كانت «تتم في الوقت المناسب، وبالكيفية المناسبة»، فلم يكن تستفزه الأحداث، وتضطره إلى المغامرة – رغم كثرتها وإلحاحها – بل كان يتحرك بخطى مدروسة، يستلهم فيها واقع الأفراد والمجتمع والدعوة، وكما تجمعت لديه معطياته عن طريق الوحي الأعلى، والتحرك الذاتي.

---

(١) هذه الدروس القيمة، نقلتها بتصرف خفيف من كتاب: «الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية» للشيخ الطيب برغوث، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط ١، السنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٥م.

# الفصل الثاني
# المنهج النبوي والتغيير في العصر العالمي

إن الجهد الرائع، الذي بذله العقل المسلم، في ميدان مواجهة خصوم المنهج النبوي، قديمًا وحديثًا، قد أتى أكله بحول الله وقوته، أضعَافًا مضاعفة، لما كان متوقعًا، وهذا فضل من الواحد القهار سبحانه وتعالى. فقد خرجت السنة النبوية منتصرة من صراع مرير، خاضته ضد الهوى، الذي انغرس في نفوس المغرضين، والمناوئين، الذين ما تركوا سبيلاً إلا وسلكوها لمحاربتها، ومحاولة النيل منها. فكان الصراع محتدما على كل الأصعدة : صعيد المنهج والمعرفة، وصعيد مضمون السنة وحمَلَتها، وصعيد فهمها وتطبيقها.

فلم تكن المعركة السُنية – إن صح التعبير – سهلة، وبسيطة، بل كانت شرسة، ومعقدة، وليس أدل على هذا، من ذلك الكم الهائل من الأفكار، والكتابات، التي ظهرت في هذا الحقل المعرفي الإسلامي.

لقد خاضت السُنة تجربتها الأولى في حضور نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، لا لتترك لنا فقط أحاديثًا وسننًا روّىٰ بها رسولنا عقول الناس، بيانًا وعلمًا وهديًا، ولكن لتخلف لنا أثرًا عظيمًا من آثار الإسلام، وهو تنزيل القرآن إلى أرض الواقع، وتحويله إلى ثقافة اجتماعية أخلاقية وروحية، وسلوكية، وعمرانية. والعجيب حقًا أن تتم عملية التنزيل، في ظرف زمني وجيز، امتد إلى حوالي ثلاثة وعشرين عامًا، وهي حياة الرسول ﷺ بعد البعثة.

ثم خاضت السُنة معركتها الثانية في وجود الصحابة الكرام، والتابعين الأبرار، وتابعي التابعين الأخيار، للتترك لنا تراثًا معرفيًا سُنيًا، وحديثيًا، ظهرت

من خلاله عبقرية العقل المسلم الاجتهادية، والمنهجية، والعقلية، فنشأت بذلك علوم رائعة، ومناهج كفاة في هذا الحقل المعرفي الإسلامي «علوم السنة».. وبعد هذا الزمن الطيب في حياة السُنة النبوية، توالت العهود، ودخلت أمتنا العزيزة في مراحل الضعف والتخلف، ليس عن ركب الحضارة كما يقولون، ولكن عن مستوى القرآن والسنة، فحدث لها ما هو معلوم من واقعنا بالضرورة.

دعونا نقول بأن السُنة النبوية في تطورها التاريخي مرت بقراءتين :

- القراءة النبوية، وتمتاز بأنها كانت سلوكًا، وقيمًا، وأخلاقًا، وواقعًا مجسداً وقرآنا، يمشي داخل مؤسسات المجتمع وثقافته. ويمكن تسميتها «بالقراءة عن طريق الوحي»، فقد كانت أقوالاً، وأفعالاً، وتقريرات كما يعبر عن ذلك علماء الأصول، ولكنها محكومة بمرجعية الوحي، ومعياريته.

- القراءة البشرية العلمائية: وأعني بها قراءة الصحابة، والتابعين وتابعي التابعين، وتابعيهم بإحسان، وتمتاز بأنها معرفية وعلمية، أي أنها اشتغلت بالجانب النظري، والاستدلالي، والبناء الفكري للسنة، وصبها في كتابات، ومؤلفات مثل الموطآت، والمسانيد، والصحاح، والمدونات.. الخ أخذًا بعين الاعتبار الجانب المنهجي منها، وما أنتجته العملية التدوينية من مناهج، وعلوم مثل علم مصطلح الحديث، وعلم الجرح والتعديل، وعلم العلل والرجال، بالإضافة إلى استخدام مناهج التاريخ، ومناهج السير في الأرض.

## وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري

**ماهي وظيفة السنة النبوية في البناء الحضاري الحديث ؟**

يبدو والله أعلم أن هذا السؤال من أخطر الأسئلة التي تواجه حركة البناء

الحضاري الحديثة لأسباب منها :

– أن عملية البناء الحضاري المقصودة هنا، هي التي تدور في إطار المرجعية الإسلامية. وهذه الأخيرة تنبني على الوحي الأعلى – قرآنا وسنة – ولهذا فمن اللازم ابتداء أن يتفاعل العقل المسلم، مع هذا الإطار المرجعي الأم، الذي بدونه تصبح عملية البناء الحضاري، لا علاقة لها بالمجتمع الإسلامي، وبالثقافة التوحيدية.

– إن عملية التعامل مع الوحي، تتم عن طريق مفتاح السنة النبوية المطهرة، فبالإضافة إلى كون السنة وحيًا مبينًا للقرآن، وموضحًا له، وكاشفًا لأسراره، وسننه، وخيراته، وأحكامه، فهي كذلك مدخل مفتاحي، لتحقيق الوعي على القرآن، وبدونها يتعذر التعامل الحقيقي، والصحيح معه.

فالتلازم بين البناء الحضاري، والسنة النبوية المطهرة، على جميع المستويات تلازم ابتدائي، بمعنى أنه لايمكن الحديث عن البناء الحضاري، وإحداث تغيير اجتماعي، في واقع الناس النفسي، والاجتماعي، بمعزل عن السنة النبوية المطهرة؛ فهي الأساس الذي لا يمكن أن تقوم بدونه عملية تغييرية، تنتمي إلى الثقافة التوحيدية. كما أن الحديث عن السنة النبوية سيبقى نظريًا، وجذبيًا فرديًا ما لم يتحول إلى قوة دينامية، تحرك طاقات المجتمع، وتوجهها لممارسة عمليات البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد حددها المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم ، ووضحتها السنة النبوية المطهرة، في ثنايا توجيهاتها، وسننها المضطردة.

## من سنن البناء الحضاري

فالاقتضاء الابتدائي في التركيب الإلهي للدعوة العالمية الإسلامية، وللرسالة

النبوية الخاتمة، استدعى التلازم المطلق، بين السنة النبوية المطهرة، والقرآن الكريم، من جهة، واستوجب التلازم المطلق، كذلك بين السنة النبوية، والبناء الحضاري، الذي غايته القصوى هي تحقيق مقاصد الشارع في الخلق من جهة أخرى (الإستخلاف والمحافظة على الكون). ومن هنا كانت رسالة الرسولﷺ (السنة) مُؤلفة بين بنائية القرآن الكريم، وغاية الخلق الكلية (كل البشر)، على المستوى النظري، ومُفاعلة بين وظيفة القرآن ورسالته، وبين البناء الاجتماعي للحياة الإنسانية، وواقعات الوجود البشري على المستوى العملي.. أعني أن السنة تؤدي دورين:

**الأول**: على الصعيد المفاهيمي الذي يساهم في توضيح، وكشف المرجعية الكبرى للناس، من خلال رؤية الوحي: للكون والحياة والإنسان.

**والثاني**: عملي توجيهي، يتمثل في ربط الحياة الإنسانية، والوقائع البشرية، بالأصل المرجعي، الذي هو (النظام التوحيدي) الكامل الشامل، الذي ختم على يد سيدنا محمدﷺ.

فالسُنة هي «الموحد» الواقعي بين خطاب الشارع الحكيم، ومقاصده، وبين حاجات الخلق، ورغباتهم في الهدى، وتحقيق مصالحهم (البناء الحضاري)، ومظهر هذا التوحيد والمفاعلة بين (الوحي) و(الخلق) في إطار العلاقة الموجودة بينهما (الاستخلاف) هو الحضارة الإسلامية، التي بناها الرسولﷺ، وواصلتها أمته إلى ما شاء الله من الزمن، قبل أن تتطلب الظروف حديثًا جديداً عن بناء حضاري جديد. ولهذا فالحديث عن البناء الجديد، يقتضي بالضرورة المطلقة الحديث عن الموحد الأول، والمنشئ الأول للتجربة الحضارية الإسلامية، أعني (السنة النبوية المطهرة) كناظم، وضابط لحركة البناء الحضاري، من أجل تحقيق مقاصد الشريعة في الخلق، وإحداث التوازن الاجتماعي من جديد في الواقع الإنساني المعضل..

## المنهج النبوي والعصر العالمي

فإذا كانت هذه هي رسالة السنة النبوية المطهرة، فكيف تقوم بهذه الوظيفة في ظل العصر العالمي المعيش؟

فعندما نطرح فكرة العصر العالمي، فإنما نعني بها مجمل التطورات العقلية، والمنهجية، والروحية، والسلوكية، التي ساهمت في نقل البشر من مرحلة تاريخية حضارية سابقة، إلى مرحلة تاريخية حضارية جديدة، والتي فرضت على البشر الدخول إلى العصر العالمي، بكل ما فيه من تطور صناعي، وتكنولوجي، وثقافي، وأخلاقي، ومنهجي، وبكل ما فيه من مشكلات خطيرة على الصعيد المفاهيمي، والمناهجي، والمعرفي، والتي ستؤثر في صيرورة البشرية فوق الكوكب الأرضي. ولهذا تظهر حتمية، وإلزامية التفكير في احتمالات الاستحالة على الصعيد الاجتماعي، والحضاري، وما سينجم عن ذلك من مواقف إنسانية، قد تضع البشر جميعًا في لحظة حرجة من تطورهم في ( نقطة الاختيار الكلي ) الذي لا يحتمل إلا وجهتين: إما سلامة البشرية، ونموها باتجاه الحق تبارك وتعالى، أو انهيارها، وتماديها على طريق الغي، والظلم، والصلف الذي سيؤدي إلى انتقام السنن الإلهية حتمًا .

## خصائص الواقع العالمي الراهن

من اللازم منهجيًا في هذا العمل أن نقوم بمحاولة لتحديد خصائص الواقع العالمي الراهن، الذي يفترض أن تقوم فيه السنة النبوية بعملية توجيه كبرى، بهدف تحقيق تغيير حضاري أصيل، يساهم في إنجاز البناء الحضاري المنشود للبشرية كافة.

فمن الضروري أن نقوم بتحديد خصائص «الواقع العالمي المعاصر» في شقيه الإسلامي، وغير الإسلامي، لأن العجز عن القيام بهذا العمل سوف يؤثر في طبيعة الأفكار التي نريد إيصالها من خلال هذا الجهد المتواضع. فالربط المنهجي بين الرؤية التغييرية الإسلامية، ومنهجيتها في التوجيه، وبين الوعي على الواقع العالمي الراهن، أمر أساس وحاسم في نجاح الجهود الراهنة في حقل البناء الحضاري، بمعنى أنه سوف يكون من العسير علينا فهم «السنة النبوية، كمركب حضاري» والوصول إلى كشف نظامها الفكري، والتوجيهي لحركة المجتمع، دون إدراك موضوعي، لطبيعة العصر، وخصائصة. فهذا الوعي على الواقع هو الذي سنؤسس عليه منهجنا الأدائي المتصل بحياة الناس، التي يراد تنزيل الشرع الإلهي عليها. وأخذها بالخطاب الرباني، الذي جاء ليحقق مصالح البشر في الدارين.

فوعي الواقع القائم شرط من شروط توجيهه، والتأثير في حركته بما يتوافق وعقيدة المجتمع.

إننا لا نهدف هنا إلى بحث مفهوم الواقع المعاصر من الوجهة اللغوية، ولا المصطلحية، التي تشتغل بالمعنى الساكن للمفاهيم، ولكن سنحاول تحديد مضمون هذا الواقع ، وخصائصه الملازمة له من وجهة نظر من يريد أن ينجز مشروعًا حضاريًا في حقل اجتماعي، وثقافي مترامي الأطراف ( كالأمة الإسلامية مثلاً ) .

## ملاحظة عن فهم الواقع

عندما يعاني الإنسان مأزق تنزيل الأفكار إلى أرض الواقع في ظل وسط بشري معضل، يحس ساعتها بقيمة وعي الواقع، كشرط من شروط التنزيل الأساسية . فمراعاة واقع الناس لازمة من لوازم التطبيق الأحسن للشريعة الإسلامية، وقانون من قوانين البناء الحضاري المستقيم ، وسنة من سنن الله في

خلقه، من أخلَّ بها فقد أخل بمصالح العباد، التي جاءت الشريعة لتثبتها ، وتوضحها ، وتحافظ عليها، مع مراعاة ظاهرة تغير الواقع في الزمان والمكان، وهذا ما يتطلب الوعي المستمر عليه.

ففي دراسة أي واقع، يجب أن نؤكد على أن هناك أموراً إيجابية، يمكن الإستفادة منها في واقعها الأصلي، ومنها ماهو سلبي، يجب التخلص منه، وتغييره بما يتناسب والعيش في ظل النموذج الحياتي الإسلامي. والأمور السلبية والإيجابية، قد تختلط على الناس، فيصبح الزبد في مقام ما ينفع الناس، ويتحول في أذهانهم ما ينفعهم إلى زبد، يجب استئصاله ، وتكثر أضراب هذه المشكلات عندما يصاب المجتمع بفقر إلى الفهم، والوعي، والإبداع. وفي هذه المراحل التاريخية، تختل موازين العمل، ومقاييس الجهد النافع ، ويصبح التزييف والعبث، واللهو من التجارات الرابحة في حياة الخلق. فكم من خير عميم توارىٰ تحت نظارة سياسي جاهل، أو صاحب عمامة متمشيخ، أو دكتور صنعته الشهادة، أو داعية مصاب بالشذوذ الفكري، أو رجل يسعى إلى بناء مجده على حساب المستضعفين في الأرض.

فكل إنسان من الناس له نظارة يتصور بها الأشياء ، ويقوِّم بها الأمور. فالعلماء والرعاة، والرعية من أصحاب النظارات، ولكن النظارات في أوساط العلماء كثيرة، ومتنوعة.. ونفس الشيء في أوساط الرعاة، وكذا في أوساط الجماهير. فقد تجد في المستويات الثلاثة من يمتلكون نظارات صافية نقية خالصة لوجه الله، ومنهم من يمتلك نظارة مزيفة مشوبة مشوشة، ولأن كل نظارة من هذه النظارات تتصل في تشكيلها، وبنائها، ووظيفتها بما يدور في العقول من وعي وفهم، وقدرة، وما يعشش في القلوب من إيمان، وأشواق، ومبررات، وما تشع به الجوارح من خير، وعمل، وسلوك... وكذلك لأن الأمر متصل بما تفرزه حركة المجتمع من ثقافة، وتاريخ، ومناهج، فإننا في هذه الحالة مضطرين من

الوجهة المنهجية الصارمة إلى البحث في الأصول التكوينية للأشياء ، والأفكار . . وعليه في فهم الواقع، من العودة إلى الجذر التكويني للسلوك البشري ، وبالتالي الدخول إلى ( مخابر صناعة الحضارة ) حيث كهوف المنهج وشعابه المعقدة .

إن دراسة الواقع الإنساني، لم تصبح بعد علمًا قائمًا بذاته في عالمنا الإسلامي الحديث . . وأعني بدراسة الواقع، اكتساب رؤية منهجية في دراسة الأحداث والمشكلات، أي دراسة حركة الخلق، ووجهتها الحضارية، ومعرفة مواقفهم من القضايا التي تواجههم، وإمكاناتهم الفكرية، والعقلية، والروحية، والسلوكية، والجسدية، ومعرفة أوضاعهم السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والتربوية، والعسكرية. وإدراك كل ما يتعلق بحياتهم الفردية، والجماعية، بشروط قيامها وبعوامل انهيارها، وكذلك ما يتصل بعلاقاتهم مع الخالق سبحانه وتعالى، ومع بعضهم بعضًا، ومع الكون المحيط بهم.

ونحن هنا لا تهمنا الكثير من هذه العناصر، فغرضنا هو تحديد الخصائص الواقعية العامة، التي تتصف بها حياة أمتنا الإسلامية، وأمتنا الإنسانية، وبعبارة أخرى التعرف على طبيعة المرحلة الحضارية التي تجتازها البشرية، ومدى تأثير هذه الطبيعة في أي حركة تغييرية، تقوم اليوم في العالم، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.

## من خصائص الواقع العالمي القائم

إن المتأمل المتعمق في واقعنا الإسلامي الراهن، سوف يلاحظ كل أصناف الفوضى، والتسيب، والانهيار. فالتجزئة المشينة للأمة، والتشتيت المخطط لطاقاتها، والقهر السياسي، والفقر، والحرمان، والجهل، والأمية، والتخلف، والبطالة، والتبطل، والتبعية، والعلمانية، والعصبيات القبلية، والنعرات الثقافية،

وحب الدنيا وكراهية الموت، والصراعات الداخلية، والإقليمية، والصراع الثقافي، والفكري، والمديونية، والهزيمة النفسية، والضعف الفكري . كل هذه الأمراض التي تطبع حياتنا، تؤثر بشكل مباشر في أي جهد تغييري، نريد أن نقوم به لصالح حفظ مصالح العباد، وحمايتهم من الظلم والخوف، والاستبداد.

إن مانصبوا إليه هنا ليس هو تشريح هذه الأمراض، ودراستها بشكل مخبري علمي، فهذا مجال آخر ، وإنما نسعى إلى تحديد الخصائص العامة للواقع البشري بمقدار ما يجلي الأفكار التي نعرضها، ولهذا فسوف نذكر بعض هذه الميزات الأساسية في هذه العناصر:

## خاصيـة العالميـة

هذه هي إحدى الخصائص الأساسية والمهمة، التي تطبع الواقع الإنساني القائم، ويبدو أن كل تغيير حضاري يتجاوزها سوف يبقى مراوحاً في مكانه مهما بدت لياقته في بعض مراحل السير، ونحن كأمة بحاجة إلى وعي هذه الفكرة بشكل عميق. لأن أصلها التكويني يمتد إلى طبيعة المذهبية الإسلامية في تشكيلها النهائي «القرآنية». فختم النبوة معناه عالمية الحضارة الإسلامية، وثقافتها التوحيدية ، ومعناه كذلك « الظهور الحضاري » للدين الحق ، ولكن ما يلاحظ اليوم هو أن المسلم غافل عن هذه الحقائق الكونية الكبرى؛ وأن غيره من الأمم، والحضارات تطرح أفكارها في سوق الحضارة، وتروج لها بشكل فعال جداً، حتى أصبح ادعاء «عالمية الحضارة الغربية»، من حقائق التاريخ البشري المعاصر التي يروج لها حتى بعض أبناء الأمة. فالطرح الذي تقدمه الحضارة الغربية لفكرة عالمية الحضارة، لا يخدم بأي حال من الأحوال فكرة عالمية الحضارة، كما يريد الإسلام تقديمها للبشرية؛ بل تعاديها وتحاربها دون هوادة.

فنحن كأمة، نؤمن بفكرة العالمية للحضارة، من منظور الظهور الكلي للدين الحق، الذي سيحقق مصالح العباد في الدارين، كما أننا نعلم يقينًا بأن طرح فكرة العالمية – إسلاميًا – هو البديل الحضاري الذي بمقدوره حل الأزمة الإنسانية الراهنة، على جميع الأصعدة.

(لقد رفعت الحضارة الغربية طاقة الإنسان إلى مستوى غير مألوف، وعندما وصلت هذه الطاقة إلى درجتها تلك، قلبت كل حقائق التاريخ، وأدخلت فيه عنصر قوة، يطبعه بطابع الشمول، وبذا وجدت الشعوب جميعًا نفسها وكأنما تقلها سفينة واحدة إلى مصير واحد. فهي شيئًا فشيئًا بفضل التطورات الصناعية الحديثة، وبخاصة في الميدان الذري، بات عليها أن تجتاز مجتمعة بعض المراحل الحاسمة وأن تعالج مشتركة بعض المراحل الجوهرية. وهكذا نرى أن تحلل المادة يتفق مع التجمع الإنساني، إذ لم تعد هناك جزيرة الفردوس التي يمكن للإنسان أن يعيش فيها منعزلاً عن تيارات الأحداث. لقد صنعت الحضارة الغربية عالمًا يترابط فيه الناس ويتعرفون فيه على الخير والشر، وقد يؤثر عامل القوة في كلا الاتجاهين دون تمييز، كأنه قوة عمياء لم يتحدد توجيهها « ... » وهو بقلبه للأوضاع التي سبق أن خلقها ، لم يكف عن أن ينمي عجينته الهائلة، حيث أوجد فيه جميع عناصر الأزمة النفسية ، والزمنية الراهنة ، في الوقت الذي يفرض فيه جميع ظروف حلها « ... » فالظاهرة هي عالمية الحضارة الغربية، التي تطرد بدافع من قوتها الخاصة « .... » والعالمية في مجراها ليست طرفة تاريخية من مفاجآت التاريخ، وليست اتجاهًا عقليًا أو سياسيًا، وإنما هي ظاهرة القرن العشرين)[1].

لنحاول الرجوع بهذا التحديد إلى أصوله، إلى ما قبل هذا التاريخ، رغم أن

---

(١) فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ ، مالك بن نبي ، ترجمة : عبد الصبور شاهين، السنة: ١٤٠٢هـ – ١٩٨١م ، دار الفكر – دمشق ، ص : ٢٥٨ – ٢٥٩ – ٢٦٠ ، بتصرف خفيف .

هذه هي المرحلة التي بدأت تظهر فيها فكرة العالمية، كطرح مؤسسي اجتماعي. فالعالمية التي نعنيها هي طور آخر من أطوار الوجود البشري، فوق الكوكب الأرضي.. والواقع الراهن بظروفه، سوف يتيح لنا إخراج الفكرة إلى حيز الواقع بعد أن دامت قروناً متطاولة في حيز القوة، تنتظر لحظات التاريخ الكبرى كاللحظة التي تعيشها البشرية اليوم مثلاً.

## فكرة العالمية وختم النبوة

في الحقيقة وكما ذكرت فيما سبق بأن فكرة عالمية الحضارة متصلة مباشرة بفكرة «ختم النبوة»، ودلالتها على الصعيد المنهجي، والفكري، والعملي، لفهم المسلم لرسالته بصورة خاصة، وفهمه لحركة العالم، ومآليته بشكل عام. فمن الدلالات الأساسية لختم النبوة ما ذكره العلامة إقبال، رحمه الله:

(إن مولد الإسلام هو مولد العقل الاستدلالي، وأن النبوة لتبلغ كمالها الأخير، في إدراكها العميق لاستحالة بقاء الإنسانية معتمدة إلى الأبد على مقود تقاد منه، وأن الإنسان لكي يحصل على معرفته بنفسه، ينبغي أن يترك ليعتمد في النهاية على وسائله هو)(١)*. ويقول الأستاذ جودت سعيد - حفظه الله -: (يمكن النظر إلى ختم النبوة من جانب آخر على أنها فكرة تعلن انتهاء الدورات الحضارية... وبانتهاء النبوة، وختمها، انتهت الدورات، وأمسك الإنسان بسنن الحضارة ليجعلها مستمرة... فمعنى ختم النبوة: ختم الدورة الحضارية.. والميزة الأخرى لمحمد ﷺ أنه للناس كافة، وهذه هي عالمية الحضارة، وانتهاء زمن الدورات، وإن كنا لانزال نعيش دورة الحضارة، وتعددها، إلا أن إرهاصات زوالها بدأت تبرز لمن تأمل)(٢).

---

(١) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ترجمة: محمود عباس، ط:٢، السنة:١٩٦٨م، ص: ١٤٤

(٢) اقرأ وربك الأكرم، ص: ٢٢٥-٢٢٦.

* يخشى أن يؤدي الكلام على إطلاقه، إلى التوهم بأن الانسان، بعقله الاستدلالي، الذي أشار إقبال إلى مولده بختم النبوة، وبلوغ كمالها، يؤدي إلى الاستغناء عن عطاء الوحي، ليقوم العقل مقامه، وهذا اتجاه خطير، لابد من تقييده بمرجعية الوحي لدوره أي التباس. (الناشر)

إن ختم النبوة إعلان رسمي على انطلاق عهد الجهاد الحضاري الطويل، وبداية عصر البحث عن البرهان الواقعي، والعملي على فكرة عالمية الإسلام، التي تقررت في عالم العقيدة الإسلامي كأساس من أسس الدعوة التوحيدية .

إننا في واقعنا الراهن نعيش معطيات العصر العالمي، ولكن يبدو أننا لم نفكر بعد، كما لم تفكر الحضارة الغربية بجد في موضوع العصر العالمي، وشروط العيش فيه: ( فالحضارة أصبحت مع الثقافة الغربية، هدفًامقصودًا، وعملاً شعوريًا، وفنًا، ووظيفة تتطلب ذكاءه، وإرادته وهو يرى فيها غايته الأرضية. هذه الذاتية الجديدة، قد وسعت أولاً حقل الحضارة نفسها ، حين مدته من النطاق القومي، والعنصري إلى النطاق العالمي، والإنساني، ولكن الغرب حين حقق امتداد الحضارة في المكان، بفضل قوته الصناعية، قد أحدث تحولاً في طبيعتها التاريخية . . . إن منعطف التاريخ الحالي . . . يجتاز بالإنسانية المرحلة الثانية من تطورها ، بعد التحول الأول، الذي دخلت به في التاريخ في نهاية العصر الحجري الجديد . . . وهذا التحول قد يغير توقعات التاريخ تغييرًا تامًا بحيث لا يدع مجالاً لافتراض « الأفول » إذ في التوقع الجديد لن يكون هناك أمامنا سوى افتراض الكسوف الكلي، والنهائي الذي لا يمكّن من أن تصاغ « نهضة » . . . وتلك هي نتيجة توحيد المشكلة الإنسانية . . . هذا التوحيد الذي أوصل مقدرة الإنسان إلى المستوى العالمي، وهو يتجلى في حياة كل شعب ، وفي تشكيلاته السياسية ، وفي ألوان نشاطه العقلي ، والفني ، والاجتماعي. فالمقاييس، وطرائق السلوك، والتفكير، لا تكف عن التقارب على محور طنجة – جاكرتا، ومحور واشنطن – موسكو )(١).

من هذه التحديدات الأولية، تبدو لنا أهمية فكرة عالمية الحضارة كمشروع حضاري، يطلب منه أن ينقل البشرية إلى طور حياتي جديد على الصعيد العقلي والسلوكي .

(١) الأفريقية الآسيوية ، ص : ٢٥٨ – ٢٥٩ – ٢٦٠ بتصرف خفيف .

## خاصية العلمية

ومن الخصائص المميزة كذلك للواقع البشري الراهن، خاصية «العلمية».. وأعني بها أن الحضارة المعاصرة، علمية، يقودها العلم، والعلماء، ولا تتحرك في مواقفها الكلية، والجزئية إلا إذا قدم الخبراء ، والمتخصصون الإشارة الخضراء . «فحضارة العلم» تعني الحضارة التي أصبح التوجيه فيها عن طريق العلم ثقافة، أي ميزة سلوكية تابعة لتشكيلها الثقافي . فالعلم مرسم سلوكيًا ، ويتدخل تلقائيًا في كل شؤون الحياة والمجتمع . فالعلم هو القائد للحضارة.. وفي هذه الحالات، تموت الدروشات، ويضمحل الجهل، ويتراجع التكهن الخرص. وعندما يصبح التوجيه بين يدي العلم، تصبح للفكرة قيمة، ولصاحبها رسالة، يعيش من أجلها. وهذه الرسالة في كل الحالات خاضعة لعقيدة الإنسان، وفلسفته في الحياة.. وبشكل عام، تمثل العلمية الطاقة الخلاقة التي فتقت الخيرات المركوزة في البشر، فوصلوا إلى ما وصلوا إليه من الدقة، والإتقان، واستطاعوا أن يتحكموا في الكثير من سنن الله في الخلق. «فالعلمية» هي الضوء الخافت الذي ينساب بين دروب الجهل، ليتحول إلى نور ساطع ينير طريق السائرين في الكون إن تدبروا، وفقهوا، ووعوا ولكنها قد تتحول إلى مرض عضال تسقط الحضارات العملاقة، وذلك عندما تمسكها الأيدي التي لا تعرف قيمتها.!! تمامًا كما يحدث هذه الأيام عند أصحاب الحضارة المعاصرة .

## خاصية العملية

العمل في الحقيقة هو محرك الطاقة الحيوية للبشر ، وإذا انتفى العمل انتفت معه الحضارة البشرية. فالعبادة عمل، وعمران الكون عمل، والتفكير عمل، وإنقاذ الخلق من الظلمات إلى النور عمل، والتعارف بين الناس عمل، والبحث

عن المعاش عمل، ونحن لا نقصد هنا هذه القيمة المطلقة للعمل، كشيء فطري تكويني في الخلق، وإنما نعني «بالعملية» ارتباط الفكر بساحات الأداء البشري المعضل، واتصال المعارف بالتجربة والتطبيق. فالواقع الراهن يؤمن بالحركة العملية، فهو لم يعد شغوفًا بالفلسفة النظرية، والعمل هو الذي يعطي للأفكار قيمتها، وإشعاعها، ويبرهن على عبقرية الجهد الإنساني الواقعية.

إن استحكام هذه الخاصية في الحياة العقلية، والثقافية للحضارة المعاصرة، وفي السلوك العام للإنسان، مكنه من امتلاك المنطلق العملي الذي يجعله يربط الفكرة بالواقع، ويربط العمل بوسائله الكفأة بشكل فعال، ومؤثر. ويصل الكيفيات المنهجية بالغايات البشرية. لقد أصبح لكل جهد إنساني مقياس واقعي واضح يحكمه. فالعملية كذلك تعني (كيفية ارتباط العمل بوسائله ومعانيه، وذلك حتى لا نستسهل أو نستصعب شيئًا بغير مقياس يستمد من واقع الوسط الاجتماعي، وما يشتمل عليه من إمكانات)[1]. كما تعني كذلك امتلاك (الضابط الذي يربط بين عمل وهدفه.. بين سياسة ووسائلها.. بين ثقافة ومثلها.. بين فكرة وتحقيقها)[2].

## خاصية التخصص

لقد كان لخاصيتي العلمية والعملية، دور بالغ الأثر في طبع الواقع العالمي الراهن بميزة التخصص الدقيق في كل شيء. فعلى صعيد المعرفة مثلاً تفرعت المعارف، وتخصصت بشكل لم يكن يتصوره «دور كايم»، وهو يقدم ملاحظاته في موضوع علم الاجتماع، فقد تعب كثيراً في موضوع

(١) شروط النهضة، مالك بن نبي، ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، السنة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، ص: ٩٥.

(٢) المرجع نفسه، ص: ٩٦.

التسميـــة نفسه ، واليوم نجد هذا العلم متفرعًا إلى أكثر من سبعين فرعًا، كل واحد منها بحاجة إلى وقت كبير جداً لاستيعابه. لقد انتشر المنطق التخصصي في كل تفاصيل حياتنا العامة، والخاصة، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والتعليمية، والتربويـــة ، والإداريـــة . إنـه فيما يتعلق بهذه الفكـــرة بالذات ، نتأســـف كثيراً لما يحدث في عالمنا الإسلامي عندما نشاهد متخصصين مطلقين يتكلمون في كل العلوم بلا علم ولا دراية، مازالت تراودهم فكرة الموسوعية التي قضى عليها عصر العالمية، والعلمية، والعملية.

## خاصية الواقعية

نحن كثيراً ما نسمع في ثقافتنا الراهنة أصواتًا تذكرنا بعصر الفلسفة الخرافية المشـؤومـة؛ فنسـمع بعضـهم يقـول: أنت لست واقعي، وأنت خـيـالي، وأنت فيلسوف!.. حالم.!. تهيم في الفراغ، وتعيش في جزيرة حي بني يقظان. وإذا سألت لماذا؟ جاءك الجواب الذي يسقط كل الاعتبارات التي يمكنها أن تدخل في توجيه الواقع إلى الأحسن. فماذا تعني الواقعية في حياتنا المعاصرة؟ إنها باختصار شديد تعني: الحكمة في التعامل مع وقائع الحياة الإنسانية ، أي توجيه الأعمـال بما يؤدي إلى نجاحها في إنجاز مهامها، بدون خسائر في الأوقات، والجهود، والطاقات.. تعني النزول إلى أرض الواقع.. إلى أعماقه الواقعية.. إدراكه في حالته القائمة، بدون زيادة ولا نقصان، ومعالجته انطلاقًا من طبيعته، وظروفه، ومعطياته..

إن الواقعية في العقل الحضاري المعاصر، خاصية نابعة من ثقافته العامة، ومن تعامله السلوكي مع الأشياء. كما أنها الوعي التام، والفهم الشامل لشروط، وظروف، ووسائل، ومناهج، وأساليب أداء عمل معين. فهي إعطاء الوقت الكافي لإنضاج الأفكار، وفهم الأحداث، والمتابعة الواعية لحركة المجتمع،

والإدراك المستوعب لإمكاناته، ونقائصه، وقواه.

## خاصية المنهجية

العمل إذا لم يكن خاضعًا لقواعد، وضوابط، ونواظم معيارية، ومعرفية، فإنه لا يسمى منهجيًا . فهو هنا لا يخضع لمنظور استدلالي معين، ولمنطق برهاني منظم، أي لا يصدر عن إطار مرجعي يحكمه، ويوجهه وفق أسس معينة، ولغاية محددة، وبوسيلة مشروعة.

فالمنهجية خاصية من خصائص الخطاب العالمي القائم. فهي وعي على كيفيات إنجاز عمل ما، وفهم لطريق الوصول إلى غرض مطلوب، وفق ترتيبات واضحة ومنظمة. والعقل الحديث ساهم بقسط وافر في تعميق القيمة المنهجية في السلوك الإنساني الراهن، رغم أن موضوع المنهجية كان موجودًا قبل هذا التاريخ بقرون متطاولة. فكل عمل لا يخضع لمنهجية استدلالية أثبتت صحتها سوف لن يجد مكانه في منطقنا العالمي القائم. وكل إقناع لا يصدر عن توجيه منهجي مؤسس، سوف يُرد، فعندما تنعدم الحركة المنهجية في العمل الإنساني يصاب بالعمى، وتظهر فيه الفوضى، وتتملكه الحيرة. فالمنهجية هي برنامج العمل، وخريطة السير، وروح التوجيه ومنطقه الذي يربطه بالواقع.

## خاصية التقنية والتكنولوجية

صحيح أن التكنولوجية والتقنية نتاج من منتوجات الوعي البشري في الحقل العلمي ، والمعرفي، والعملي والمنهجي.. إلا أنها تمكنت من تحرير موقعها في عالم القرن العشرين كواحدة من خصائص الحضارة القائمة.

فالحياة البشرية اليوم، مطبوعة بطابع التقنية والتكنولوجية ، التي وحدت

القارات، وقلصت زمن الاتصال والتعامل ، ورفعت درجة الحوار الثقافي بين الحضارات، بشكل لم يكن يتصوره العقل الإنساني قبل هذا التاريخ . فقد حلت الآلة محل الجهد البشري، وأصبحت العلاقات الإنسانية متيسرة بوسائل، وأدوات بسيطة في متناول جميع البشر، وغزت التكنولوجية الدقيقة عالم الناس.

فإذا كان ابن خلدون من قبل قد كتب مؤلفه التاريخي الضخم في أكثر من سبعة مجلدات، وإذا كان معاصرنا أرنولد توينبي قد أنجز عمله الضخم « دراسة للتاريخ » في مايقرب من سبعة آلاف صفحة وقضي فيه أكثر من أربعين عاماً؛ فإن كتابة هذا الكم من المعارف أصبح اليوم ممكناً في جهاز بسيط يمكن للإنسان أن يحمله معه ، وهكذا دخلت التكنولوجية في تفاصيل حياتنا الخاصة والعامة، ونقلتها إلى طور آخر من أطوار تعاملها مع الحياة والكون والناس ، وأخرجتها من طور قتل الأوقات، وتبديد الطاقات إلى مراحل الاقتصاد في الجهد والوقت، وإلى عالم الدقة ، والإتقان ، والجمال ، في العمل الإنساني.

فالاتصال السلكي واللاسلكي، والحاسوبات الإلكترونية، والأدمغة الصناعية، وأجهزة الذكاء الاصطناعي، والأقمار الصناعية، والتقنيات الاتصالية الحديثة، والمراكب الفضائية، والتكنولوجية العسكرية، والطبية، وكل الأداتية، والتقانية، والآلياتية التي نشاهدها في عالم الحضارة المعاصرة هي نتاج طبيعي « للمنطق التكنولوجي » و« للعقل التقني » الذي خلفته النزعة العالمية، والعلمية، والعملية، والتخصصية، والمنهجية في حياة الناس.

لقد أعطت ( التكنولوجية )[1] الحديثة للعقل البشري فرصة التفاعل الإيجابي مع سنن الله في الكون والأنفس، وأمدته ببعض وسائل التسخير المادية التي تتطلب استعمالاً أكثر فاعلية لأجهزة التسخير المعنوية: السمع والبصر

(١) راجع : دراسة في البناء الحضاري ، « محنة المسلم مع حضارة عصره » ، د : محمود محمد سفر ، كتاب الأمة ، رقم :٢١ ، ط : ١ ، السنة : ١٤٠٩هـ .

والفؤاد والقلب..

والتكنولوجيا اليوم تسير بخطى متسارعة إلى عالم جديد أسماه مستشار الأمن القومي الأمريكي السابق «زبيغنيو بريجنسكي» بـ «العصر التكنتروني».

## المنهج النبوي وقدرته على البناء

ففي ظل هذا الواقع البشري الخطير الذي يستدعي التفكير الجدي في شروط، وموجبات العيش في العصر العالمي الذي سيمتد في مستقبل الحضارة البشرية بشكل واسع، وخاصة في القرن الواحد والعشرين، يتثبت في الأذهان تساؤل مهم هو:

كيف يساهم المنهج النبوي في حل الإشكال العالمي الراهن؟ وبعبارة أخرى: ما هي المساهمة التي سيقدمها المنهج النبوي في مجال البناء الحضاري الجديد؟

فالمعلوم بالضرورة لدى قطاع ضخم من البشرية في الوقت الراهن أن الحياة الإنسانية موسومة بمسحة الشيطان. فالظلم الحضاري هو المنطق الذي يحكم حضارة البشر القائمة، في نفس الوقت الذي يبدو فيه أفق الحضارة، وصانعيها، ضيقًا، ولايحتمل توسيعه – على المستوى المنظور – بشكل يعطي للناس فرصة العيش المشترك في العصر العالمي. فقدرة العقل البشري الراهنة غير قادرة على فهم مقتضيات الانتقال، وموجبات الاستمرار الحضاري، على أساس فطري عادل، يستوعب كل الاتجاهات البشرية القائمة، دون هدر لحاجات الناس العقيدية، والعقلية، مع إلزامية الوعي، بأن البشرية لن يصلح حالها ما لم تعد إلى (فطرة الله) التي ركبها سبحانه وتعالى في الأنفس، والآفاق، وفي الكتاب.

إن هذا النوع من الاستيعاب قد أنجزته من قبل ( السنة النبوية ) بشكل لا يتوهم فيه أحد تغييره إلى الأصلح منه مطلقًا . وهنا تظهر لنا الأهمية القصوى في مجال دراسة المنهج النبوي كمركب حضاري ساهم من قبل في بناء حضارة التوازن الفطري من خلال المفاعلة بين الوحي الأعلى – قرآنا وسنة – وبين حاجة الخلق ، والغاية من وجودهم الأرضي ( الاستخلاف والمحافظة على الكون ) .

فالمنهج النبوي ليس فقط خطابًا اخلاقيًا – (**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**) – بل هو حركة وعي عقلية، ومنهجية، وروحية، وسلوكية لهذا الخطاب الأخلاقي على الصعيد الاجتماعي، ودراسته في إطار تجربة بناء نموذج حضاري مستوعب للمطلق وللنسبي – أي – مركب على أساس وعي متطلبات الزمان والمكان . لهذا كان ( النظام التوحيدي ) الأخير « القرآن » أنموذجًا عالميًا مبعوثًا لكافة الخلق ، ولجميع البشر .

ونحن هنا نريد أن نبحث عن ظاهرة المنهج النبوي في هذا المستوى من الوعي، الذي ساهم في تركيب حضارة، بدءًا من تركيب إنسان، وثقافة، ومجتمع، وأمة، في ضوء مذهبية توحيدية، إلهية المصدر، ومن أجل غاية شاءت إرادة الله أن تكون لصالح الإنسان في حياته الدنيا والآخرة .

## من أجل قراءة أخرى للسنة

وبعبارة أخرى نريد أن نقوم بقراءة جديدة للسنة النبوية المطهرة تنطلق من قراءتين سابقتين :

– قراءة الرسول ﷺ الأخلاقية، والسلوكية القاصدة إلى وضع أسس البناء الحضاري العالمي، الذي أصبح مصدرًا أساسيًا لفهم القرآن، وتنزيله إلى أرض الواقع ( قراءة الوحي ) .

- وقراءة بشرية علمائية تمثلت في البناء النظري للنموذج النبوي، وتدوينه، وتسجيله في كتب السنة، والحديث، والفقه، والأصول، والعقيدة، والتاريخ، والجغرافيا، والسياسة الشرعية.. إلخ (قراءة بالعقل). مع العلم بأن القراءة الثانية مستخلصة من التفاعل بين العقل الإسلامي والقراءة الأولى (قراءة الرسولﷺ)، وذلك في ضوء المذهبية التوحيدية. وهذا معناه أن غياب القراءة الأولى، يعني أن أي قراءة لاحقة إلى قيام الساعة مرفوضة في حياة الأمة، وأن أي بناء حضاري لا يقوم عليها فهو رد، وغير مقبول مهما كانت نتائجه. فالقراءة النبوية للوحي، وتنزيله إلى أرض الواقع حجة على كل التطور العقلي، والمنهجي الذي وصلته، وستصله البشرية في مستقبل أيامها، وبعبارة أكثر دقة: أن كل الإنتاج العقلي، والفكري الراهن، مطلوب للمثول بين يدي معيار الوحي الإلهي، الذي تمثل السنة النبوية المطهرة إطاره العملي، الذي أدى فيه الرسولﷺ رسالة البلاغ المبين، كما أمره الله سبحانه وتعالى.

فالقراءة الجديدة محظوظة بشكل عظيم لأنها تقف على خبرة الجيل النبوي الأول، الذي كان في مرحلة التأسيس للنموذج الحضاري التوحيدي، كما تقف على تجربة الجيل الإسلامي الثاني (عصر التدوين ثم العصور التي تلته وساهمت في مواجهة الحملات الشرسة ضد السنة النبوية) الذي كان في جهاد متواصل للحفاظ على الحضارة الإسلامية، ووراثتها بشكل غير مخل بغاياتها، وحقائقها التاريخية.

فهذه القراءة التي ظهرت منذ بوادر الصحوة الإسلامية الحديثة مطالبة بالوعي العميق على القراءتين السابقتين، بالإضافة إلى وعيها على أمرين مهمين:

- طبيعة القراءة الجديدة للسنة النبوية المطهرة، باعتبارها مصدراً لبناء حضاري جديد، بكل ما يتطلبه هذا العمل من فهم للعصر العالمي، وشروط العيش

فيه، والتعامل معه من أجل تغييره لينسجم مع خطاب الشارع الحكيم، ويحقق مقاصده العليا في الخلق.

- منهج، وكيفيات، ومستويات هذه القراءة على الصعيدين النظري والعملي. فهذان هما العملان الحاسمان اللذان يستحقان العناية الكافية من قبل حركة التغيير الإسلامي. إذ عليها أن تثبت فيهما بشكل منهجي. وعندما يتم هذا التلاحم، والتفاعل بين العقل الإسلامي، والسنة النبوية المطهرة في ضوء المعيار التوحيدي، فستظهر للناس القدرة المذهلة للمنهج النبوي في تركيب حضارة جديدة انطلاقًا من تغيير الإنسان، والثقافة، والمجتمع، وإعادة ضبط حركة هذه العناصر الأساسية في البناء الحضاري.

فالمنهج النبوي سوف لن يفهم بالشكل المطلوب، ما لم يقرأ كقوانين اجتماعية، وسنن تاريخية، ومسالك أخلاقية، حكمت حركة التغيير الحضاري الإسلامي الأول الذي أنجز من خلاله الرسول ﷺ بناءًا حضاريًا شامخًا، وحقق به عملية (أسلمة حضارية شاملة) للمجتمع الجاهلي، ومكنه من تحرير مكانه في عالم الحضارات. أعني أن المنهج النبوي نفسه يمثل إطاراً - ساحة تاريخية تطبيقية - خصبًا لدراسة السنن الإلهية الحاكمة للجهد البشري. ولهذا فتطبيق (منهج السير في الأرض)[1] في دراسته، مجدٍ جداً، لأنه سيتم عن طريق منهجيات (النظر) التي تسعى إلى كشف سنن الهداية الربانية، وقوانين الفطرة الإلهية التي فطر عليها الناس. فالمنهج النبوي، ساحة للتعامل مع عالم الأسباب، وعالم سنن العبادة، والإعمار، والإنقاذ، والتعارف، التي ستوصل الناس إلى تحقيق غاياتهم الدنيوية المتمثلة في (الاستخلاف والمحافظة على الكون)..

(١) انظر كتابنا: التغيير الحضاري ومنهج السير في الكون «مخطوط»، واقرأ وربك الأكرم، للأستاذ جودت سعيد.

# المنهج النبوي يحدد المأزق العالمي الراهن

إن المنهج النبوي الذي اعتبرناه مدخلاً أساسيًا لأي بناء حضاري، يقوم على أساس (النظام التوحيدي القرآني) ويساهم في تحديد المفتاح المدخلي للبناء الحضاري الجديد. إذ من المعروف في علم الاجتماع التغييري: أن حل أي مشكلة تواجه المجتمع، مهما كان نوعها (ثقافية، أو تاريخية، أو حضارية) مشروط بفقه هذه المشكلة في تركيبها الواقعي، وتشكيلها الاجتماعي، أي كما هي في حياة الناس، دون زيادة ولا نقصان، وهذا التحديد، لابد أن يخضع كما هو معروف كذلك لمنهج علمي أثبت صحته، ولخطوات تحليلية منظمة، تقوم على الملاحظة، والافتراض، والتجريب، والوصول؛ أي استخدام المنهج الاستقرائي، والمنهج الاستنباطي، بغرض الوصول إلى كشف علل الأشياء، والأسباب القابعة وراء وجودها، وفهم قوانين التعامل معها، وعلاجها. وهذا الأمر يتطلب منا أن نبحث في المنهج النبوي، كسبيل لكشف سنن الهداية والترشيد. وهذا الأمر لن يتم لنا في الحقيقة إلا باستقراء كلي لنصوص السنة النبوية، وتحقيق هذه النصوص على صعيد المنهج التاريخي، أي وفق (منهج السير في الأرض والنظر في سنن الهداية الربانية) كما أمر المولى تبارك وتعالى في كتابه العزيز الحكيم. ولتعذر هذا العمل الضخم في مثل هذه البحوث الفردية، سوف نحاول تقديم نموذج تحليلي لنص نبوي، نبين من خلاله الطريقة المقصودة في التحليل، والتي سنقوم بتطبيقها على الكثير من النصوص النبوية في المستقبل بحول الله وقوته.

قال رسول الله ﷺ :

**«يوشك أن تداعى الأمم عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها».. قالوا:** أو من قلة نحن يومئذ يارسول الله ؟ قال : **« لا ؛ بل أنتم كثير ولكنكم غثاء**

**كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن». قيل: وما الوهن يارسول الله؟ قال: «حب الدنيا وكراهية الموت؟»**(١).

إن هذا الحديث النبوي الشريف، يعتبر من المداخل الأساسية التي يمكنها أن تعيننا على التحديد الصحيح، والدقيق لنقطة الانطلاق في التغيير الحضاري الراهن للعالم. فللحديث منطقية منهجية خاصة في تفسير الظاهرة الاجتماعية. فقد تجاوز المراحل التمهيدية ، لما يسمونه البحث العلمي، ثم تخطى مرحلة التجربة، وتوصل إلى استخراج القانون ، الذي يحكم الظاهرة الإنسانية. وهذا التوصل ليس ضرباً من التكهن الخرص، بل وعي مستوعب في عالم الأسباب ، وفهم مستنير للسنن الإلهية، واستخدام ناجح للمنهج الذي يشكل وعيًا تاريخيًّا مستقبليًا، ينتج عن إدراك عميق للنفوس البشرية ، وللحركة الاجتماعية عمومًا.

## عرض عام لموضوعات الحديث النبوي :

هذا الحديث يشتمل على قضايا، بعضها يتصل بمجتمعنا الإسلامي، وبعضها الآخر، متعلق بغيره من المجتمعات. كما يمثل في جوهره قمة سامقة من قمم الوعي التاريخي على سنن الله في الخلق. لنحاول التعرف على بعض جوانبه التي تهم بحثنا هذا:

**أولاً** : فهو يحدثنا عن أمم متنوعة، سوف تتكالب على أمتنا – وهذا هو واقعنا اليوم – وهذا التداعي يكون في سياق التدافع الاجتماعي بين النموذج الإسلامي والنماذج الأرضية الأخرى – الغرب واليهود – .

**ثانيا** : ويصف لنا طبيعة هذا التداعي على هذه الأمة، التي تدين بدين (الحق والحقيقة) ، ويشبهه كتداعي الأكلة إلى قصعتها ، فهذا يدمر عالَم

(١) رواه أبو داوود ( صحيح أبي داوود للألباني ) .

أفكارها ، وذاك ينسف عالم أشخاصها، وذلك يبدد عالم أشيائها.

**ثالثًا**: ثم يضعنا أمام حوار صادق بين المجتمع الإسلامي الوليد، الذي كان في أحسن ظروف انسجامه، وفاعليته الاجتماعية في ذلك الوقت، وبين النبي عليه الصلاة والسلام كمرجعية توجيهية ، وتبيينية للخطاب الإلهي. إذ نجد المجتمع يستفسر عن سبب هذه الفاجعة الحضارية، التي توشك أن تدرك مجتمعًا ناشئًا. ثم يقدم هذا المجتمع افتراضًا احتماليًا – الصحابة – محاولاً تفسير الظاهرة التي يتحدث عنها رسول الله ﷺ قائلاً : أومن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ وكأنه يريد أن يرجع المسألة بأكملها إلى عالم الكم، وبالضبط إلى (عالم الأشخاص). ولكن النبي عليه الصلاة والسلام، يرد القضية إلى مسارها الحقيقي، بوعي سنني عميق، بعيداً عن عالم الكم قائلاً: «**بل أنتم كثير**». ثم يصف هذه الكثرة بوصف ينزع عنها الفاعلية النفسية، والاجتماعية قائلاً: «**ولكنكم غثاء كغثاء السيل**».. وهذه الحالة في الحقيقة، هي أقصى حالة يعيشها مجتمع إنساني معين. فمليار من البشر لا يستطيعون توفير شروط حياتهم واستمرارهم الحضاري ، ويصبحون لقمة سائغة توجهها مجتمعات سرطانية، تعشش اليوم في قلبها النابض – السرطان اليهودي – وهذا كله لأنهم غثاء. ووضعية الغثائية، من الأمراض النفسية الاجتماعية، التي إذا حلت بثقافة مجتمع ما، أهلكتها، وحولتها إلى مجرد كيان شكلي مهلهل؛ كالثقافة الإسلامية في عصور الانحطاط مثلاً .

**رابعاً** : ثم بعد هذا يقدم الرسول ﷺ العلة الحقيقية للظاهرة المرضية مرجعًا أياها إلى مصدرين أساسيين هما :

– التحولات الجارية في نفسية الأعداء، أي المجتمعات ، والثقافات التي تعادي الإسلام قديمًا وحديثًا (الغرب واليهود) والتي سعت وتسعى إلى إنهاء الوجود الحضاري للإسلام كمعامل حاسم، وأساس في إحداث التوازن

الكوني – اجتماعيًا – ، وهذه التحولات جعلت من هذه النفسيات تكتسب مناعة، وقدرة على مواجهة قوى الأمة ، والعمل للفتك بها «**ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم**» .

– التغيرات الجارية في نفسية الأمة ( فردًا ومجتمعًا ) بحيث أصيبت هذه النفسية ( بمركب الوهن ) الذي أرجعه النبي عليه الصلاة والسلام إلى فاجعة العصور والدهور ، ومعضلة النفوس ، والعقول ، وآفة الحضارات، والثقافات وهي (**حب الدنيا وكراهية الموت**) .

فالنبي عليه الصلاة والسلام أعاد العلة الحقيقية في الحالتين إلى عالم النفوس وإن – صح التعبير – إلى عالم الأفكار، كبديل عن عالم الأشخاص على ما رأى المجتمع الإسلامي. وبالضبط في فكرة الوهن، التي لها علاقة مباشرة مع أجهزة العمل الصالح في الإنسان: العقل والقلب والجوارح. فالعقول جمد علمها، والقلوب فتر إيمانها ، والجوارح تعثر عملها . وكما هو معلوم فإن : العلم والإيمان والعمل، هم الزاد الدائم للحضارة .

**خامسًا** : ويبدو كذلك بأن الحديث لم يربط تشكل مركب الوهن، بفترة زمنية معينة، ولكنه أعادها إلى جهود أجيال ( الوهن الثقافي ) والتخلف الحضاري، لتساهم بإرادتها، وتوجيهها، في تشكيل هذا المركب داخل نفسية الفرد، والمجتمع، وثقافتهما على حد سواء. وبواسطة قوانين ( التوارث الاجتماعي ) للمركبات المرضية في ( الحقل الثقافي )، نُقل المرض بشكل تراكمي إلى أن وصل إلى ( بدايات العصر العالمي ) الذي نعيشه اليوم، عباد الثلث الأخير من القرن العشرين ، وهنا دخلت الإنسانية في منعطف من منعطفات صيرورتها فوق الأرض، فتطلب منها الأمر، نظرة مستوعبة في مشكلاتها، وأزماتها.. والحديث النبوي يقدم وعيًا عميقًا على هذه القضية كما أشرنا سابقًا.

إن (الحديث النبوي)(١) الشريف ، سنة من سنن الله في الخلق ، ورؤية صائبة في المأزق العالمي الراهن الذي تشكل من :

– التحول النفسي الذي تم في نفسية صانعي الحضارة الحديثة ، بما في ذلك الجانب العقلي، والفكري، والمنهجي، والعمراني، والتكنولوجي، والثقافي، والسياسي، والاجتماعي، والتربوي.

– التحول النفسي الذي تم في نفسية الإنسان المسلم بما في ذلك جوانب الفعالية الثقافية الثلاثة: العقل، والقلب، والجوارح.

# المنهج النبوي وتوجيه جهود النهوض

فالحديث يقدم المساعدة الأولية اللازمة لبناء حضارة العصر العالمي، وذلك بتحديده للمشكلة الإنسانية المعيشة، ولكن يبدو أن عالم الاجتماع المسلم المشتغل بحقل النهضات – إن وجد أصلاً كعلم جماعي – لم يعر بعد الاهتمام المطلوب للمنهج النبوي، باعتباره مركبًا حضاريًا للطاقة الإنسانية، كما لم يتذوق بعد قيمة هذا الحديث النموذجي الذي نحن بصدد تحليله.

فقد أتاح لنا الحديث فرصة عظيمة، واختصر لنا زمنًا طويلاً، قد نقضي فيه كامة، ويقضي فيه غيرنا من الحضارة القائمة قرونًا متطاولة بعلومهم الإنسانية، والاجتماعية، كيما يصلوا إلى تحقيق النتيجة المذهلة التي توصل إليها الحديث، منذ أربعة عشرة قرنًا. فقد حدد لنا رسول الإنسانيةﷺ موقع المرض العضال الذي خلف حضارتنا، وهو بصدد إسقاط الحضارة الغربية، وقدم لنا منهجًا قاعديًا لتركيب حضاري جديد، يؤهل الإنسانية للدخول إلى العصر العالمي. فهذا الحديث يخدم منهجية عالم التاريخ، وعالم النفس، وعالم الاجتماع، والمفكر المسلم، لأنه يوفر عنهم تكاليف تأسيس منهجية لدراسة أزمة الأمة الحضارية على حد تعبير المرحوم مالك بن نبي .

---

(١) راجع المقدمة القيمة التي كتبها الأستاذ عمر عبيد حسنه في كتاب الأمة رقم ٢٦ .

إن في الحديث تعبير صادق وصحيح عن تغيير اجتماعي ونفسي عميق، أصاب النفسية البشرية عمومًا (الإسلامية وغير الإسلامية).. فعلى صعيد النفسية الإسلامية، سارت الأزمة على طريق (حب الدنيا وكراهية الموت). وعلى صعيد النفسية غير الإسلامية، نمت العقلية الاستعمارية التي تسعى هذه الأيام إلى نفي الإسلام من العالم تحت تسميات، ومسميات متنوعة مثل (السلام.. والحضارة الغربية العالمية.. والأصولية الإسلامية..).

فالحديث يرى بان المجتمع الإسلامي غثاء، لأنه فقد الشعور برسالته الاجتماعية، التي تاسست على (حب الموت وكراهية الدنيا من أجل الدنيا) كما وضح بان المسلم أصبح من المخلدين للواقع الأرضي الفاني. حيث هبط الكثير من الناس ليعيشوا راضين في فوضى عالم الأشياء. فمعظم مواقف المجتمع الإسلامي أصبحت تدور حول محور (حب الدنيا وكراهية الموت) وذلك هو جوهر (الأزمة الحضارية) التي تمر بها البشرية، بما فيها مجتمعنا الإسلامي، الذي أصيب بالوهن (فلقد كان هذا الحديث ضربًا من التنبؤ والاستحضار: استحضار حالة العالم الإسلامي، بعد أن تتمزق شبكة علاقاته الاجتماعية، اي عندما لا يعود مجتمعًا، بل مجرد تجمعات لا هدف لها كغثاء السيل. ولا ريب أن جيلنا الحاضر يدرك الحديث، أكثر مما يدركه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه يصف في مضمونه العالم المستعمر، والعالم القابل للاستعمار، الأمر الذي تعرضنا فيه لتجربة شخصية)[1].

من هنا تتضح لنا أهمية هذا المدخل الذي ساعدنا على تشكيل الجملة السابقة من الملاحظات، وفتح لنا طريق التأمل الأعمق. فهذه الطبيعية الدقيقة للأزمة، هي المفتاح، لأي تحول في مجتمعنا الإسلامي الراهن، وفي مجتمعنا البشري القائم. فكل فلسفة للتغيير الحضاري، تتجاوز هذا الوعي تعد جهلاً،

(١) ميلاد مجتمع - شبكة العلاقات الاجتماعية - مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر. دمشق، السنة: ١٩٨١م، ص: ٢٦

وانتحاراً في هذا الميدان الخطير، وخير دليل على صحة هذا الزعم، هو كل المشاريع النهضوية ، التي قامت في عالمنا الإسلامي المعاصر، وكل الأمراض التي رافقت نمو الوجهتين الرأسمالية والشيوعية في العالم.

لقد تجاوزت السنة النبوية في وعيها للأزمة الإنسانية الراهنة، العلوم الحديثة بقرون من الوعي، والجهد المخبري الذي سيثبت في النهاية أن حل الأزمة الإنسانية وتاهيلها، لتدخل العصر العالمي، مشروط بعلمها ( أنه الحق ولهذا قال المولى تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

فحل الأزمة ينطلق إذن من عالم النفوس ، ويمتد في عالم المجتمع، ثم ينتشر في عالم الثقافة، وبعدها يدخل إلى عالم التاريخ، ليتحول فيما بعد إلى منهج للسير في الأرض من أجل الاهتداء إلى السنن الإلهية . قال تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النساء : ٢٦) .

وهذه هي رسالة السنة النبوية في حقل البناء الحضاري، حيث تبين منهج كشف السنن، وكيفيات تركيبها لتصبح ثقافة اجتماعية حية، تتجسد فيها قيم الوحي، ومعاييره ، ونظمه الحياتية المتنوعة، والشاملة لحياة الناس الدنيوية، والآخروية.

## منطقية السنة النبوية في التعامل مع الظواهر الاجتماعية

إن منطق السنة في التعامل مع الظواهر الاجتماعية منطق متميز، أخذ قوته الاستدلالية، ومنهجه البرهاني من منهج القرآن الكريم، الذي يمتلك حق النظر في الماضي، والحاضر، والمستقبل، وفي كل غيب علمه عند الله سبحانه وتعالى، ويتحكم في هذه الحركة بشكل مستوعب، وصحيح لا ريب فيه مطلقاً. فهو

صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة. وعلى هذا فالسنة النبوية مثلاً عندما تتحدث عن (قصص الأنبياء)، فهي تكشف لنا عن تجارب حضارية عميقة وعن تركيب جوهري للحقيقة الدينية، مع حوادث الكون، والحياة. ومن هنا يكون لهذا القصص النبوي، حق كشف السنن، وتوجيه الناس إلى سنن الهداية. فعندما تعطي السنة النبوية حكمًا حضاريًا، وتاريخيًا مضطردًا، فإنما تأخذ حجيتها من الموقف القرآني الكلي، وتعتمد فيما وصلت إليه على استقراء كلي للمنطق القرآني في دراسته للظاهرة التاريخية.. وهذا مثال لذلك، فقد ذكر رسول الله ﷺ:

**(ما ظهر الغلول في قوم إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط، إلا وكثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان، وإلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق، إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر بالعهد، إلا سلط الله عليهم العدو)**[1].

لنحاول فهم الحديث في منظور منهجي معين. ولتسهيل التحليل نقسم الحديث إلى موضوعات:

- ظهور الغلول (مرض اجتماعي) في مجتمع يؤدي إلى (أزمة نفسية)، من مظاهرها: (إلقاء الرعب في القلوب)، وهذا يؤدي بدوره إلى نتائج حاسمة في غير صالح المجتمع، الذي يمارس هذه الأعمال. فالسبب مرض اجتماعي، والنتيجة أزمة نفسية، تجعل حياة الناس في قلق، وفوضى، وخوف، وهذا صحيح، ومعيش في حياتنا.

- فشو الزنا (مرض أخلاقي) في مجتمع يؤدي إلى (نتيجة كونية تدخل في إطار السنن التكوينية وتساهم في هلاك النسل) وهي حدوث الموت، ومصداق هذا الحديث في هذه الأيام هو مرض «الإيدز».

---

(١) الموطأ، موقوفًا على ابن عباس.. قال ابن عبد البر: رويناه متصلاً عنه، ومثله لا يُقال رأياً.

– نقص المكيال والميزان ( مرض اقتصادي ) يؤدى إلى ( أزمة معاشية ) هي انقطاع الرزق، وهذا معناه هلاك الأموال.

– الحكم بغير الحق ( مرض سياسي ) يؤدي إلى ( أزمة أخلاقية ) هي التقاتل، والتنازع، وهذا سيؤثر في بقاء النسل ، ويساهم في فشو الدم الذي يخرب به العمران البشري.

– والختر بالعهد ( مرض أخلاقي ونفسي ) يؤدي إلى ( أزمة حربية ) وتقاتل وتسلط الأعداء، وبالتالي الخوف، وضياع الأمن، وتعثر الاقتصاد، وانهيار البلاد، وهلاك مصالح العباد، من حفظ للدين، وللعقل، وللنفس، وللنسل، وللأموال.

هذه الثنائيات التي يذكرها الحديث، والتي تمثل سببًا ونتيجة ، ليست مذكورة على سبيل الحصر، وإنما مجرد أمثلة بسيطة للسنن ، التي تتحكم في الظاهرة الاجتماعية في مستواها الأخلاقي، والاجتماعي، والسياسي ، والاقتصادي، والتربوي، والعسكري، والعمراني، والنفسي. أي أنه يمس كل حياة الناس، ويرتب نتائج على أكثر من علم، ومنهج وصعيد.

فالحديث يقدم منطقًا معينًا في فهم الحركة التاريخية، والاجتماعية، وبأمثلة تمس بعض جوانب الحياة الإنسانية، والروح التي تسري في أحشاء الحديث هي الروح السُّننية. بمعنى أنه مبني على أسباب، وقوانين، وسنن مضطردة، لا تتخلف في أي زمان ولا مكان، في حالة توفر الشروط المحددة لكل قضية من القضايا المطروحة. ومن هذا المنطق بالذات، استطاع النبي عليه الصلاة والسلام، بحكمته ، وإحاطته بالأمور ، أن يخترق حدود الزمان ، والمكان ، ليقرر مسألة ( الغثاء ) التي تعيشها أمتنا اليوم. فهو ليس بالضرورة تكهن خرص، وليس كذلك رجم بالغيب، وإنما تبصر، وفهم. فهو وعي للسنن الإلهية، ولقوانين الحركة التاريخية، وهذا هو المنطق الكلي الذي جاءت السنة النبوية لتشبيته في حياة الناس، وتنبههم عليه، بوعي ، ومن خلال تجارب عملية، ومواقف بشرية،

صنعت أحداث قسم من التاريخ العالمي، هو تاريخ الحضارة الإسلامية ، بكل ما تحمله من خصائص متميزة.

فلو تساءلنا مثلاً عن سبب فشو الغلول، والزنى، ونقص المكيال والميزان، والحكم بغير الحق، والختر بالعهد . . . إلخ، لوجدنا السنة النبوية المطهرة ترسم لنا وعياً آخر، على صعيد آخر من الأسباب ، والمنطق الاستدلالي ربما يهدينا هذا الحديث إليها: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: قال رسول الله ﷺ : **(لاتحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً. المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره ، التقوى ههنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام : دمه، وماله، وعرضه)**[1].

فالحسد، والتناجش، والتباغض، والتدابر.. أمراض نفسية، وأخلاقية، تؤدي إلى سلوكيات، وأعمال للجوارح، تؤثر في الحركة الاجتماعية باكملها.. والبيع على بيع الأخ، والظلم، والخذلان، والكذب، والتحقير.. إلخ أمراض أخرى تصدر عن نفس مريضة، وكل هذه الظواهر السقيمة هي التي تصنع الأزمة داخل المجتمع بعد أن تكون قد كونتها في النفوس، وبالتالي يحدث الانهيار الاجتماعي. والرسول ﷺ يشير إلى مركز الداء العضال، منبهاً إلى مصدره، ومؤشراً على موقعه الحقيقي ( التقوى ههنا ) هناك في عالم القلب، والفؤاد، والعقل، والنفس. ولهذا نجده في نفس الحديث، يضع حدوداً أخلاقية لحفظ القلوب، وتزويدها بالضابط الروحي، والناظم الأخلاقي، الذي يلهمها القدرة على الانسجام مع سنن الله في الخلق، ( **كل المسلم على المسلم حرام: دمه ، وماله ، وعرضه** ) . .

---

(١) رواه مسلم .

ولا يتوقف النبيﷺ عند هذا الحد، بل يرسم منهاج الحل للمشكلات، ويعطي التدابير العملية لذلك، وهذا ما نستخلصه من حديث سنني آخر: (عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول اللهﷺ: **«من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.. ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة .. ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة .. والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه.. ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقًا إلى الجنة.. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون الكتاب ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده.. ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»**[1].

في هذا الحديث سنن، وقوانين، وتوجيهات تسعى إلى تاسيس القاعدة الأخلاقية للسلوك البشري، وما التوجيهات، والطرق التي قدمها الرسولﷺ في هذا الحديث، بغرض تحقيق الترقي الروحي والسلوكي، إلا مظاهر للغاية الأخلاقية الاجتماعية، التي يقصدها الرسولﷺ. لقد ربط كل فعل بجزاء إلهي لا نظير له. فكما ربط تنفيس الكربة في الدنيا، بجزاء إلهي، هو تنفسيها في الآخرة – وما أعظمه من أمل يعيش من أجله المسلم – فقد ربط التيسير على المعسر، بتيسير الله في الدنيا والآخرة. وهكذا تواصل منطقية السنة في تقديم نظامها البرهاني للحركة التاريخية، ورسم وعيها في شكل نظام منهجي أخلاقي، يمكن تطبيقه في أرض الواقع، وفي حياة الناس، وماغايتها إلا العمل من أجل المحافظة على مقاصد الشارع في الخلق، كما أمر المولى تبارك وتعالى.

---

(١) رواه مسلم.

فالغاية القصوى للسنة، والتي أخذتها من القرآن الكريم، هي السعي إلى (إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبداً لله اختياراً، كما هو عبد لله اضطراراً)[1].

إن هذا العرض العام لبعض الأحاديث، مكننا على الأقل من اكتشاف المدخل الأولي، الذي يمكن أن نستعمله، من أجل فهم منطقية السنة، ونظامها البرهاني، ومنهجها الاستدلالي، ورؤيتها المنظمة للظواهر الإنسانية، وتعاملها مع عالم الأسباب. فعمق هذه الأحاديث، يعبر عن وعي الرسول ﷺ لسنن الله في الخلق. وعليه فالسنة النبوية المطهرة، ساحة خصبة للسنن الإلهية العاملة في الذكر، والأنفس، والكون.. واكتشافها، وفهمها، وتسخيرها، مطلب شرعي، ولازمة استخلافية، لا تقوم بدونها حياة إنسانية مستقيمة على الطريقة.

## السنة النبوية مصدر للثقافة الإسلامية

ولكي نتعامل بشكل جيد، ونافع، مع السنة النبوية المطهرة باعتبارها مركباً للفعل الحضاري الإسلامي، الذي يراد له أن يعمل على حفظ مقاصد الشارع في الخلق، يجب أن نلاحظ بأن هناك مستويات للتعامل، كما أن هناك منهجيات، وكيفيات، سوف نقوم بعرض عام لها، ضمن هذا العنصر الذي عقدناه لبحث منطقية السنة في تعاملها مع الظاهرة الاجتماعية.

إن السنة النبوية مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية. وهذا يؤدي إلى البحث في مستويات الفعل الثقافي، وكيف يتركب في الواقع البشري المعضل. فللثقافة وجهان: الوجه النظري ويمثل البناء التصوري، والمفاهيمي، والمعرفي،

(١) الموافقات، ص: ١٦٨.

والمنهجي للظاهرة الثقافية . والوجه العملي ، ويمثل التشكيل الاجتماعي، والسلوكي للظاهرة. فدراسة أي ثقافة بشرية لابد ان تمر على المستويين السابقين: مستوى الإطار المرجعي، ومستوى الإطار السلوكي. ودراسة أي منهما بمعزل عن الآخر، سوف يجزئ الظاهرة الثقافية، ويفصل شقيها المتلازمين. فكل السلوكيات، والمواقف العملية، والبنى المادية لثقافة ما، إنما يرجع إلى الجذر النظري والمرجعي ، الذي يطبع عالم الثقافة بطابعه، وبنائه الخاص ، المستمدأصلاً من تصورات المجتمع، ومواقفه الكونية، والحياتية.

وما دامت السنة النبوية مصدراً من مصادر الثقافة الإسلامية، فإنها تؤثر في الجانبين معا. وعليه فمن الضروري دراستها من الجانبين كذلك:

- السنة النبوية كمصدر للبناء الثقافي النظري والمرجعي (عالم العقيدة والأخلاق الإسلامية)[1].
- والسنة النبوية كمصدر للنظام السلوكي لدى الأشخاص (عالم السلوك وعالم العمران).

في المستوي الأول، تظهر لنا مجالات التعامل مع الظاهرة الثقافية التي منها:

- مجال التصور الكوني .
- مجال المفاهيم .
- مجال المنهجية .
- مجال النظرية المعرفية .
- مجال القوانين الثقافية .
- مجال القوانين الأخلاقية .

---

(١) راجع السنة النبوية ومنهجها في بناء المعرفة والحضارة، ندوة عقدت بعمان في ١٥-١٩ ذي القعدة ١٤٠٩هـ الموافق لـ ١٩-٢٣/٦/١٩٨٩م ، ج ١ : ج ٢ . وكيف نتعامل مع السُّنة . للشيخ يوسف القرضاوي.

- مجال المشروع الاجتماعي .

- ومجال التنظير ، وضوابطه . .

أما في المستوي الثاني للظاهرة الثقافية ، هناك كذلك مجالات للتعامل نذكر منها :

- مجال الواقع الإنساني .

- مجال السلوك البشري .

- مجال الجهد البشري .

- مجال المعاش والعمران البشري .

- ومجال التاريخ، والسير في الأرض.

والسنة النبوية تدخل في توجيه الجانبين معًا، حتى ينسجما مع الخطاب الإلهي، وينضبطا مع القانون الفطري العام الذي جاءت الشريعة لتدل عليه، وتعلم بأنه صبغة الله التي يجب أن يعود إليها البشر في صناعة حياتهم، وتسخير سنن الله من أجل تحقيق السعادة في الدارين.

إن فهمنا للسنة النبوية بهذه الشمولية، وإدراك قدرتها الفائقة على التوجيه في مختلف الأصعدة السابقة، سوف يتيح لنا فرصة التعرف على الخير الإلهي الذي أودعه سبحانه وتعالى في جهد نبيهﷺ كما سيطلعنا على القدرة الذاتية للوعي النبوي المضمن في سنته، التي تمثل الإطار العملي لمقاصد الشارع الحكيم في الخلق، ولحركة تنزيل الخطاب الرباني في صورة موقف اجتماعي، كان من محصلته بناء الإنسان، والمجتمع، والثقافة الإسلامية المعبرة عن حضارة الإسلام في الأرض.

# المنهج النبوي ومفهوم التغيير الحضاري

سوف لا نسعى إلى البحث عن مفهوم للتغيير الاجتماعي من وجهة نظر العلوم الاجتماعية، والسلوكية الحديثة، لسبب واحد، هو أنها ليست في العمر الحضاري الذي تعيشه أمتنا عمومًا، والحركة الإسلامية التغييرية خصوصًا. فالموقع العملي للأحداث التي تمر بها الأمة داخليًا، وخارجيًا، مختلف عما يدور في الذهنية الحضارية المعاصرة، ولما تسعى إلى تحقيقه من الأهداف، تبعًا لتصورها الكوني. أعني أن هذه العلوم، وبشكل خاص علم اجتماع التغيير والحضارة، والثقافة، تعيش في عمر حضاري آخر، يتصل بجدلية الحضارة القائمة، وصيرورتها التاريخية الذاتية، التي لا يمكن بأي حال من الأحوال تعميمها، مالم تصبح معارفها معبرة عن القانون الفطري، الذي يحكم الخلق.

ومراعاة اختلاف الأعمار الحضارية، لازمة منهجية في مجال التغيير الاجتماعي، وقد أشار إليها ابن خلدون بذكاء في قوله: (اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور، خلقًا، من أحوال ذلك الطور، لايكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع لمزاج الحال الذي هو فيه)[1]. وابن خلدون هنا، يوضح قاعدة مهمة في مستوى الدولة، يمكننا أن نعممها لتصبح حاكمة للسلوك الحضاري، وهذا ما أكده مالك بن نبي رحمه الله، بقوة في قوله: (وعليه فلا يجوز لأحد وضع الحلول والمناهج، مغفلا مكانة أمته، بل عليه أن تنسجم أفكاره، وعواطفه، وأقواله، وخطواته، مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته.. أما أن يستورد حلولاً من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييعًا للجهد، ومضاعفة للداء. إذ كل تقليد

(١) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن محمد بن خلدون، تحقيق: د: عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر العربية للطباعة والنشر، ط: ٣، ج: ٢، ص: ٥٥٣ - ٥٥٤، بتصرف خفيف.